مُحَمَّد الحَمَوي

رواية

صَاحِبَة المَوْلِدْ

كيان للنشر والتوزيع

محمد الحموي

صاحبة المولد

رواية

دار كيان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

-١-

الدفوف

بدأت الدفوف الأربعة بإصدار إيقاعات وأصداء جعلت قلبها يخفق بقوة أكبر، لتتحول خفقاته بعد برهة إلى ضربات عنيفة تتماشى مع النقر المتواصل.

ككل منازل الطبقة البرجوازية في المنطقة الأولى من المدينة، كان المنزل كبيرًا. له بهو واسع فيه ثلاثة صالونات مفتوحة على بعضها، بينها فراغات ضخمة مما جعل الأثاث الفاخر لا يقف حائلا أمام أصداء ضرب الدفوف.

بدأت أولى الفتيات بإيقاع معين تلتها الفتاة الثانية بنقر خفيف، ثم بدأ دوي مكتوم بالظهور أطلقته الثالثة ذات الصحة الوافرة واليدين الممتلئتين والدف الكبير نسبيا، وتبعتهن الأخيرة التي كان دور دفها ثانويا مقارنة بأدوار بقية الفتيات، رغم أنها الأكبر سنا.

شكلت الفتيات الأربع مزيجا مألوفا وكريها معا في نفس من يقام المولد على شرفها.

وعلى الرغم من نشأتها في منزل يهوى الموالد، فإنها ومنذ طفولتها لا تستطيع الاندماج مع مثل هذه الطقوس، وكأن عيبا ما يعتور هذه المراسم التي التصقت بالدين منذ أمد بعيد.

لكن المولد في هذه المرة تحديدا كان مختلفا عن كل ما شهدته في المرات السابقة، فقد حمل مع تهليلاته

وإيقاعاته رجلا سيلازمها بقية حياتها.

كان كل دف يشكل إيقاعا معينا يذكرها باسم شريكها، كل نقر ينادي بدوام حياتها معه وباستحالة استمرار علاقتها مع من أحبت أو مع من ظنت أنها أحبت، أو ظنّت أنه موجود معها أصلا.

ولذا كان نقر الدفوف يعادل عندها اليوم طبول الحرب، الجيشان يستعدان، جيش كامل العتاد تقوده والدتها، فيه عائلتها وزوجها المنتظر وعائلته وناقرات الدفوف والمدعوات وربما الدنيا بأكملها.

وفي المقابل تقف هي وحيدة، لتعبر عن جيشها بنفسها ورأيها، ويقف خلفها سرها الحبيب، الذي تستمد منه كل طاقتها الدفاعية والهجومية على حد سواء، ومعها الله أيضا حسبما تعتقد.

أما والدها فلم تكن تستطيع تصنيفه ضمن أي من الجيشين، فقد كان يقف بعيدا في صفوف المتفرجين لا يعرف إلى أي الفريقين سينضم: إلى فريقها هي، أم إلى فريق والدتها.

كان «للحب» تعريف خاص في أسرتها وعند والدتها تحديدا، تعريف ضبابي مستمد من تعاليم «الطريقة» الصوفية التي تدرجت فيها الأم، وتربت عليها منذ أن كانت طفلة حتى صارت ضليعة بأصولها.

فالحب من منظورها لا ينبغي أن يكون موجها إلا نحو الخالق فقط. وهو الحب الباقي، أما حب العبد للعبد فهو حب فانٍ، مصيره الزوال مهما طال، ولذلك فالأولى

تجاهله.

تُزرع فكرة «الحب» تلك في الأسرة منذ المراحل الأولى من العمر، وأساسها هو محبة العبد المطلقة للخالق وتطبيق تلك المحبة وإثباتها لا يكون إلا عن طريق الامتثال للأوامر والابتعاد عن النواهي، خوفا من العقوبة في الدنيا قبل الآخرة. وهو أمر جميل فيما لو اكتمل بحدّ الرحمة واللطف الإلهي، وأيضا لو أقرّ بوجود الهامش الدنيوي الذي لابد للإنسان من الخوض فيه وفق متطلبات النفس والجسد كما حددها الله.

لكن الفوز بالمحبة وفقا لتلك «الطريقة» لا يتحقق إلا عن طريق الخوف، واليقين بأن عقوبة الرب واقعة على العبد حال وقوع الذنب وأن الهدف من ورائها هو التطهير.

وبما أنّ صغار السنّ لا يعرفون كيفية ولا سبيلًا لتعريف أو تفريغ هذا النوع من المحبة الرفيعة، فكان من الضروري توجيه طاقاتهم العاطفية نحو «الطريق إلى الخالق» وليس الخالق نفسه.. والطريق إلى الخالق يتبلور عادة بالشخص الدال عليه.. الشخص الذي وصل إلى درجات عالية من العلم والكشف والمحبة، وهو الموجّه والمعلّم.. أما عدا ذلك أيا كان فقد كان يقع خلف الخطوط الحمراء.

أي أن «الطريقة» في نهاية الأمر تقر محبة العبد للعبد إن كان هذا العبد هو طريق للفوز بمحبة لله.

ضبابية العلاقة وتناقضها وفق ذلك التعريف، مع

التراوح المضني بين حدّي المحبة والخوف، كل هذا وأشياء أخرى كثيرة جعلت بطلة المولد تعاني من اضطراب في نفسها وتضارب في مشاعرها رافقها عبر سنين حياتها.

لم تكن تلك المشاعر بداية أكثر من مجرد غموض غريب في مراحل الطفولة، غموض ساحر يفضي إلى رغبة حقيقية بالتميّز، وأحلام دائمة «بالكشوفات» و«المرتبة» و«الحظوة» المرجوة عند الخالق عز وجل.

ولكن ما لبثت تلك الأحلام السماوية أن اضطربت حين بدأت تلك الطفلة بالنمو والتشكل، وما لبث ذلك الدافع الذي تمت زراعته في نفسها أن صار هاجسا ممضا حين بدأت تتجاوز أوامر والدتها ولا تجد بدا من تكرار ذلك.

ولكن ما جعل إحساسها السماوي هذا يهبط أخيرا فيلامس أرض الواقع وبشكل واضح، هو بدء شعورها بجسدها كأنثى، والذي ظهر في حياتها منذ أن بدأت إشارات استفهامها الطفولية حول أمور التكوين بالظهور، وبدأ سعيها الغريزي للتعرف على المعنى الحقيقي لأعضاء الجسد كافة ووظائفها الفعلية.

كان من العسير جمع الكفتين في نفس واحدة لا سلطان فيها إلا للترهيب.

ذلك التسامي المعلن عنه دائما من جهة، وتلك المشاعر الأرضية الجديدة التي يتم التعاطي معها في الخفاء من جهة أخرى.

لقد جعلتها تلك الكفتان مع اختفاء الترغيب والغفران تربة خصبة لاحتضان بذرة الذنب.

جاء بلوغها سريعا.

ومنذ أن ظهرت البوادر الأولى لذلك وقبل حتى أن يحدث، بدأت مرحلة جديدة في حياتها مصاحبة لأسلوب قديم طبقته والدتها عليها كما طبقته على أختيها من قبلها؛ مراقبة يومية، وجلسات توجيهية مستمرة، ونظرات متابعة تسبر الأغوار لاكتشاف أي توجه خاطئ أو هفوة مستحدثة، حيث تأتي المحاسبة سريعا وبشكل قاسٍ ونهائي.

كانت تشعر دائما بأنها خائفة من شيء ما، أو أنها مذنبة بأمر لا تدرك كنهه يجعلها تخشى العقوبة، وتتحداها في آن معا.

كل ذلك أتى بعد الحادثة التي فجرت عقدة الذنب الأولى في طفولتها، ولم يكن السبب الفعلي في حدوثها سوى طفل صغير من أبناء الجيران.

كانا يلعبان دائما بصحبة عدد من أطفال الجوار في حديقة البناء الواسعة المليئة بنباتات الزينة والشجيرات كثيفة الأوراق وبعض الأشجار العالية.

في يوم ما اختفيا معا خلف شجيرة وارفة لها ظلال، كانت اللعبة تقتضي الاختباء، فجلسا القرفصاء خلف الجذع الخشبي العريض، لكنه فجأة ارتبك وقال لها:

- يجب أن أذهب إلى الحمام.

قالت له

- الآن! لا. لا تذهب سيكتشفون مخبأنا.

- لكنني لا أستطيع أن أحتمل أكثر، يجب أن أذهب حالا.

- أجّلها قليلا.

- قلت لكِ لا أستطيع.

خطرت لها فكرة شقية، فقالت له:

- ما رأيك أن تفعلها هنا خلف الشجرة؟

احمرَّ وجهه وقال:

- ولكن هنا عيب، يجب أن أذهب إلى الحمام.

- افعلها هنا ولن يراك أحد، كي لا يعرفوا أين نختبئ فنخسر.

- ولكن أنتِ موجودة!

- سأدير وجهي، لن أنظر إليك.

- حسنًا لا تنظري، ممنوع أن تنظري.

- لن أنظر كما قلت لك.

وافق أخيرا، أدارات هي وجهها واتخذ هو الشجرة ساترا له، ثم فعل ما فعل.

لكنها لم تحفظ وعدها، بل لفت وجهها ونظرت نحوه كي تتخطى حاجز الممنوع الذي فرضه عليها، فرأته عاريا.

في عالم الطفولة قد تحدث أحيانا أشياء نصفها بالبذاءة، أو قلة التربية، أو الخطأ الجسيم، لكنها تحدث،

وكلنا نعي أنها موجودة، وكلنا نعرف أنها إن حدثت فما ذلك إلا بأمر الفضول الغريزي، الذي يتجاوز في بعض الأحيان العقل الطفولي غير المكلَّف، فيدفعنا كأطفال لفعل أمور نستغربها ونستهجنها ونشعر فيها بالذنب الجسيم.

وقد يلاحقنا هذا الذنب حتى نلقي بالعبء عند شخص ما من ذوينا فنرتاح وتستمر الحياة باتزان.

ما حصل في ذاك النهار كان أمرا بسيطا، لكنه مفصلي جدا في حياتها. فما قامت بفعله دونما إدراك أو وعي منها جعلها تعود إلى منزلها تحمل ثقل الدنيا فوق ظهرها خوفا وذنبا.

كان الأمر أشبه بالدخول إلى أكثر مناطق العالم سرية وظلاما.

كانت مغامرة صغيرة جدا ومفاجئة.. جعلتها تدرك وللمرة الأولى في حياتها أن هذا الطفل الذي يقف قبالتها مختلف عنها بأمر جوهري جدا. فهو ذكر وهي أنثى، وقد فهمت اليوم فقط هذا الاختلاف بنفسها بعد أن نظرت وبشكل مباشر نحوه كي تتمرد على الممنوع وتشبع الفضول.

عادت إلى المنزل في ذلك اليوم محمرة الوجه، تحمل ابتسامة ودمعة معا، وتحتار في الاحتفاظ بأيهما.

هل ترخي العنان لابتسامتها باكتشافها ومغامرتها الصغيرة؟ أم تسعى وراء دمعتها وتعي الذنب الجسيم الذي اقترفته بنظرتها المحرّمة وتحاول الاعتراف؟

كانت صغيرة، لا دليل لديها..

لم تكن تملك فهم الحقائق، ولم تكن تعي ما تواجه..

بقيت في شتاتها تشعر بتمزق طفولي أسس لها منذ تلك اللحظة همّاً سيلازمها ما بقيت في هذه الدنيا، همّ الذنب، وهمّ التكفير عنه.

لم يأخذ الأمر منها أكثر من ساعة واحدة فقط حتى غلبتها دمعتها الأولى بدمعتين، وذهبت إلى والدتها على استحياء ونظرت إليها بخوف.

كانت تريد التخفف من عبء ما تحمل، وفي الوقت نفسه تخشى البوح، تتمنى الخلاص بإطلاق الأمر والاعتراف وتخشى العواقب.

اتسعت عينا الأم عندما شاهدت دمعتي طفلتها، عرفت بفراستها المعتادة أن الأمر يحمل ذنبا.. ولم تكن من النوع السلس فيما يتعلق بالذنوب.

دخلت قفص الاتهام بقدميها وأحاطت نفسها بقضبان اتهام والدتها وسياط نظراتها.

لقد كان محفورا في داخلها أن والدتها ستعلم ذنبها عاجلا أم آجلا، لأنها ببساطة تعلم كل شيء.. ولأنها الوحيدة التي سيخبرها الله عن كل شيء. هذا ما تم تلقينه لها عندما كانت أصغر عمرًا.

أخبرتها.. ببطء.. وكان أول شيء شعرت به بعد ذلك هو الحرارة المرافقة لألم مزعج فوق وجنتها.

ثم ألم مماثل فوق الوجنة الأخرى.

ثم سيل عارم من التأنيب لتضخيم الذنب المرتكب والتأكيد على مصير الطفلة المرتقب في جهنم، التي ذاقتها الطفلة بالصفعات المتكررة المرافقة للتأنيب.

واستمر الأمر على هذا المنوال حتى فقدت الفتاة وعيها من هول شعورها بالذنب.

-٢-

السيدة

يشتد نقر الدفوف ويتشابك.. وتبدأ وجوه الضاربات بالتوهج أكثر من ذي قبل.

على الرغم من أن الفتاة التي لم تتجاوز الثامنة عشرة إلا ببضعة أشهر هي السبب في إقامة المولد اليوم فإن نجمة الحفل الحقيقية كانت هي الأم التي تجاوزت منتصف العقد السادس بعام أو عامين.

ولم يكن تمرغ هذه السيدة العتيدة بأشكال وصور التدين، لينقص من حجم أرستقراطيتها الموروثة التي لم تتأثر على الإطلاق بواجهات الدين، بل بقيت بارزة واضحة للعيان بدءًا من نظرتها وانتهاءً بحذائها.. فكل تفاصيلها توضح انتماءها لعلية القوم.

نشأتها كطفلة وحيدة بين ستة إخوة ذكور في منزل رجل معروف من رجال الإقطاع صبغها بصبغة ما كان لأي تدين أن يخلصها منها، إلا إن كان يقينا مخلصا يخرج من عباءة الآباء ويبني انتماء سليما بعيدا عن الاستعلاء.

محاولاتها الحثيثة بالتواضع لم تكن تظهر بشكل حقيقي إلا خلال تهجدها الليلي وحيدة مع خالقها، إذ كانت تستطيع بانعزالها عن عوالمها واقترابها من الأرض خلال السجود أن تغسل نفسها من أوهام السيطرة ودلال العائلة الذي عاشته طويلا ومازالت.

لكن الصباح الذي يأتي بعَرَض الدنيا كان يعيدها على الفور، ويعيد إليها لون طباعها الأصلي، الذي يظهر واضحا من خلال الخطين المتوازيين الدقيقين فوق جبينها الأبيض، والنظرة الشديدة في عينيها السوداوين اللتين تجمعان الجمال والسيطرة بآن معا.. تلك النظرة التي تستطيع من خلالها سبر أغوار من تنظر إليه، بدءا من زوجها وانتهاء بأصغر فرد من عائلتها.

كانت دائمة المحاولة لكسر طوق انتماءاتها الإقطاعية، دائمة التذكير لنفسها ولمن هم حولها بالتواضع والذلة للخالق، لكنها ما أن تخرج لشراء كسوتها وكسوة طفلاتها حتى تصاب بهوس الأميرات المدللات.

لم تكن أفخم منتجات المدينة لترضيها، ولم يكن ليجلب انتباهها إلا أعلى هيئات الألبسة المستوردة والأغلى ثمنا.. مما لا يستطيع زوجها بحد ذاته توفير ثمنه، لكنها هي شخصيا التي تستطيع إرضاء نفسها بشراء قطع كهذه عن طريق الإيرادات الهائلة، التي تأتيها من عقارات وأراضٍ كثيرة وإقطاعات قديمة ورثتها عن والديها.

استطاعت الحصول على حصة أكبر من الإرث بعد أن توفي أحد إخوتها الستة بمرض مفاجئ، وبعد أن حرم أخوها الأصغر من حقه في الإرث نتيجة عصيانه أوامر والده وسفره إلى الخارج وانقلابه على جميع قواعد العائلة وإرثها الصوفي.

لم يكن المفهوم الديني في صغرها بأقوى وأمتن من

المفهوم الاجتماعي، حيث يغلب قانون العرف على قانون التحليل والتحريم الحقيقي.

ولعل العرف في تلك الفترة القديمة وحتى في فترتنا هذه أقوى في كثير من جوانبه من الأمر الديني، بل لعل الكثير من الأعراف يعاكس في جوهره جوهر العديد من الأوامر الدينية الصريحة، ويشكل مفهوما خاصا للدين المأخوذ من العادة لا من رحمة الخالق وعدله وحكمته التي لا تنضب.

لم تكن الصلاة أمرا مفروضا في العائلة الإقطاعية لكن الحشمة كانت أمرا مقدسا، لم يكن أمر الله هو ما يجب أن يخشاه أي طفل يعيش تحت سقف المنزل الأشبه بالقصر، ولكن أمر الوالد هو ما تجب فعلا خشيته.

وربما هذا ما جعلها تؤمن دوما بضرورة وجود الواسطة بين العبد والرب، خاصة إن كان العبد لا يعرف أي شيء عن الرب.

بالنسبة إليها كان الأمر أشبه بوجود رجل يقف على بوابة الملك. ليس من المعقول أن يقابله الملك فورا قبل التدرج في سلسلة من المراتب؛ بدءًا من البواب، ثم حارس القصر فالوزير فالحاجب الشخصي.. وربما بعد كل هذا الملك.. وربما لا.

كان والدها رغم اتساع ملكه وسلطته متدرجا في الطريقة الصوفية التي انتهجتها هي وورثتها عنه، وكان الداعم والممول الرئيسي لها، إذ كان يعتبره شيخُ الطريقة العمودَ الأساسي فيها، ومصدر النور والرفعة بما

ينفقه من مال بلا حساب على كل فعاليات الموالد والحضرات ودعم الأسر المحتاجة من أتباع الطريقة واستمالة الناس إليها وأشياء أخرى كثيرة ما كانت لتتم من دون دعمه على الإطلاق.

كانت هي بدورها مولعة بوالدها وبهيبته وسلطته، وطريقته الصلبة في إدارة الأمور، خاصة بعد وفاة والدتها المبكرة وعدم حصولها على الجرعة الكافية من لين الأم ولطفها.

لطالما أمتعتها رؤية نظرات الخوف والاحترام في عيون الناس أمام والدها، بينما تجلس هي في أحضانه بلا خوف متنعمة بأمان وسطوة خاصة مستمدة من سطوته ومن مكانتها في قلبه، إذ لم تكن هي المفضلة لديه والأكثر دلالا بين أولاده فحسب، بل كانت الوارث الحقيقي لسلطته وإدارته للحضرة والموالد وجلسات الذكر والتصفية.

وكان لها بناء على ذلك حظوة خاصة وتميزا لدى شيخ الطريقة، الذي أدرك أنها ستكون العنصر الفعال في دعم مجموعته عند غياب الأب أو وفاته، ولذلك فقد كان يخصها بدروسه واهتمامه ويلقنها هي على الأخص أكثر من بقية إخوتها أصول الطريقة وتدرج العبد بين يدي شيخه حتى يصل إلى محبته ومنه إلى محبة الرب.. ومن هنا أصبحت تلك هي طريقتها وهذا هو منهجها الذي عُجنت فيه منذ أن كانت غضة وتيبست نفسها عليه فصار أمرا يكاد يكون من المستحيل زعزعته في

نفسها.

ولعل سلوكها هذا ومنهج التزامها وفق هذه الطريقة هو ما ميزها لاحقا وجعلها اسما مرموقا في عوالم الإقطاع المتدين، الذي يسير رواده وفق خط دقيق رسمه لهم أولو الأمر بطريقة حازمة ليس من السهل أبدا الخروج عنها.

ذلك النوع من التدين الذي لا هَم له فرديا إلا الخضوع، ولا تأثير له اجتماعيا إلا الانسياق والتشابه، بلا أي أثر حقيقي لا في موازين العدل ولا في صروح الإحسان.

وقد كانت حاسمة حازمة ربما أكثر من والدها نفسه في تصريف شؤون بيتها وعائلتها. فلديها الكثير من القواعد التي رسمتها بعناية كي تمنع أي تسريب خارجي للخطأ أو التشويش في نفوس أفراد أسرتها.

لم تسمح بوجود تلفاز في منزلها إلا بعد ضغط متواصل من زوجها، لكنها وعندما رضخت اشترت أضخم وأحدث جهاز وُجد في عصرها.

وفرضت حوله حصارا هائلا وهالة مخيفة، حيث كان أسهل على طفلاتها الهروب من المنزل أكثر من تشغيل التلفاز ومتابعة ما يُبث من خلاله.

وعلى الرغم من ذلك لم تكن ولا واحدة من بناتها لا تحفظ جدول البرامج غيبا، ولا تجد ألف طريقة كي تتابع ما تشاء من برامج تصح أو لا تصح رؤيتها، وخاصة الأصغر من بين البنات؛ صاحبة المولد.. التي لم

تكن لتوفر فرصة لاقتناص مشهد أو متابعة قصة أو سماع أغنية.

كم شدتها مشاهد.. وكم أثرت فيها مسلسلات.. كم أطلقت أحلامها بين أغنية عربية وأخرى أجنبية. كم حفظت من الأغنيات وأعادتها فقط أمام مرآتها. كم تخيلت من مواقف ستكون هي فقط البطلة فيها وستختار البطل الأوسم والأرق والأكثر قدرة على احتضانها بقوة لا تعادلها قوة.

لقد فكرت كثيرًا في الاحتضان..

ورافقها شعور دائم بأن الاحتضان هو أول وآخر شيء يجب أن يفعله الإنسان في نهاره.

حلمت باحتواء يغلفها كشرنقة.. يحملها إلى حيث ترغب.. ويقضي على كل ما يزعجها.. احتواء يؤمنّ لها الاحتماء والاختباء والعزل عن مجتمعها ورقابته الحديدية.

ويقدم لها النُسغ السحري كي تتحول إلى فراشة دونما ذنب أو خوف.

كل هذا وأكثر قد حلمت به وأطلقه لها وجود تلفاز محاصر.

كان التلفاز يبدو لأخواتها مغامرة.. لكنه يبدو بالنسبة إليها شجرة محرمة.. يحقق رغبة العصيان غير المقصود.. أو ثورة العصيان المقصود.. يسمح بقطف الفاكهة الممنوعة.. ويؤمن مغامرة بريئة من السهل سترها.. أو هكذا ظنت.

لكن الامتحان الذي واجه محبوب الرب آدم كان امتناعا واحدا وسلسلة من المباحات ورحمة لا تنتهي.. أما هي.. فما كانت لتلاقي إلا سلسلة لا تنتهي من الممنوعات.. مع حداثة سن.. وتفجر طاقات مخنوقة محفوفة بعاطفة تبدو أكثر شبها بشلال متدفق من غير الممكن إيقافه أو بناء سد يقابل اندفاعه.

كانت كل محاولات الوالدة الحذرة الدقيقة تجد دوما طرقا ملتوية لاختراقها، وفي بعض الأحيان كانت الطرق غاية في الذكاء والجرأة، وكلما اخترقت حاجزا من الحواجز شعرت بنشوة لا توصف. نشوة رهيبة يتفشى مفعولها سريعا في روحها.. ويتبدى واضحا فوق وجهها وفي إصرار عينيها.

ولا يمكننا إغفال حقيقة أن خرق الحواجز بحد ذاته، وبصرف النظر عن نوع الحاجز حتى وإن كان غير مهم كان يشكل في بعض جوانبه انتقاما أيضا.. انتقاما خفيا من أسلاك القوانين وتسربا حرا إلى فسحة العالم الخاص.

قد تشكل كثرة الاختراقات الداخلية والخارجية وصراعات الرفض والتقبل عند الإنسان عالما داخليا خاصا واسعا من الممكن له أن يمتد ليخلق شاعرا.. أو ثائرا.. أو مجنونا.. ولعلها قد جمعت في شخصيتها الجوانب الثلاثة معا.. لكنها اكتفت بالاعتراف لنفسها بثورتها فقط.. وبنت عالمها الطفولي بناء على تلك الثورة.

-٣-

المتفرج

تتنقل بين سيدات المجتمع الراقي.. تقوم بتوزيع الأدوار كما يليق بسيدة المنزل وملكة العائلة ومالكتها.

تمسك زمام المولد الضخم ببساطة ويسر.. تحثّ الخادمات على الاستعجال بتدوير الصحون.. تتكلم مع الجميع وتلقي بالا لكل كلمة تقال.. وتكرر إرسال الأطفال والبالغين إلى غرفة ابنتها لاستعجالها.

- أخبروها أن تتحرك وإلا سأجرها جرا حتى وإن كانت لم تنتهِ!

تقول لرسولها هذا فيرتجف الخطان المتوازيان بين حاجبيها المستقيمين، ويرتجف الرسول بدوره فيهرع لنقل الرسالة ليجد الباب موصدا والفتاة لاتزال تطلب المزيد من الوقت.

باب آخر كان موصدا.

غرفتان فقط في المنزل الواسع كانتا تحملان عوالم أخرى بعيدة عن عالم المولد الذي زحف ليملأ جميع فراغات المنزل وغرفه.

الأولى هي غرفة صاحبة المولد ذاتها. أما الثانية فكانت غرفة مكتب والدها، الذكر الوحيد في المنزل بين كل هذا العدد من النساء.

يغلق الباب ويرفع صوت مذياعه القديم ويغرق وراء مكتبه.

ينثر مجموعة من الأوراق التي لا يقرؤها، كي يقنع الداخل إليه أيا كان أنه مشغول بأمور العمل.

كان مقتنعا أن إنقاذ الرجل دوما بالنسبة لمجتمع النساء هو فرض حصار العمل، وأن المرأة التي ترى زوجها يعمل بجدٍ ستتركه ليهتم بعمله وستعفيه من الكثير من الترهات.

يستمع إلى إذاعة لندن. يغرق في جو تلك الإذاعة التي رافقته طيلة أعوامه الخمسة والستين. يهوى تلك النبرة الجنائزية التي تكلل أصوات المذيعين ويحب وقار البرامج الترفيهية.

كلما سمعها تذكر ضباب المدينة التي تبدو له بعيدة جدا الآن، بل ربما كانت مجرد حلم مرّ سريعا في حياته ثم اختفى نتيجة عودته.

عام كامل قضاه فيها حمل ما حمل من يوميات وتفاصيل مختلفة تماما عما كان يعيشه قبلها في كنف أسرته، التي تصنف في أعلى مراتب عائلات الطبقة المتوسطة في ذلك العصر ماديا واجتماعيا، وربما تكون قد لامست سقف التوسط أو حتى تجاوزته في بعض الأحيان لتجلس في قاع تصنيف علية القوم.

العائلة كبيرة نسبيا، ذات مستوى ثقافي جيد، احتوت عددا لا بأس به من أصحاب المهن الحرة وأصحاب الفكر والقلم في الوقت نفسه، وربما لولا الحادث المفاجئ الذي حدث لوالده ما كان ليلغي دراسته ويعود على الفور دون حتى أن يتسع له المجال ليودع جثمان

والده، بل كان ليصبح هو نفسه من أصحاب الفكر والمؤلفات، وكانت بذور جيناته ربما ستتطور في أحشاء امرأة أخرى.

لكنه عاد.. دون أن تتيح له الحياة إمكانية متابعة ما كان قد بدأه في البلاد الأخرى.

كان لابد له من إدارة شؤون أسرته الصغيرة بنفسه بعد والده.. فاكتفى بموقع تدريسي لا بأس به في الجامعة مع إدارته لحصة عائلته في محلات الأقمشة التي كان يملكها والده الراحل شريكا مع اثنين من إخوته.

عاش في لندن سنة واحدة فقط.. كانت كفيلة بإخراجه من يوميات مدينته المتشابهة.

سنة واحدة عززت ميله نحو الهدوء وندرة الغضب، ربما بسبب طبيعته الأصلية المبنية على المحاكمة العقلية المتأنية، وربما بسبب طبيعة تخصصه في دراسة الأديان، الذي يتعامل مع المقدسات بمرونة أكبر وكأنها مواد فلسفية أو أدبية من السهل الخوض في غمارها دون رهبة أو تردد، وربما بسبب تلك الفرنسية التي ركن إليها على الفور بمجرد لقائه بها في الخارج.

ينصت إلى المذياع ويذكرها حتى يومه هذا.

كانت تتكلم همسا. لطالما أحب الفتاة التي تتكلم همسا دونما ضعف.

لم يكن يجيد الفرنسية، ولم تكن هي تعرف العربية، فأوجدا منطقة لغوية مشتركة عبر الإنجليزية، وأوجدا معها أيضا فضاءات واسعة مشتركة بينهما.

كان كل منهما يترك دائرته الخاصة ويقفز مع اللغة المشتركة ليحقق تقاطعا مشتركا مع محاوره.

تخلى خلال علاقته بها عن الكثير من الثوابت الاجتماعية المتعلقة بالعلاقات والتي وجدها لا تستحق الركون إليها طالما أنها ليست من أمر الدين ونواهي الله. وبالمقابل تخلت هي عن الكثير من مخلفات الثورة الفرنسية التي صبغت حياة المرأة الفرنسية خاصة والأوروبية عامة بترهات التحرر النظرية، التي تقبع خلفها سلاسل العبودية الرأسمالية واستغلال المرأة حتى الرمق الأخير.

نهل منها الانفتاح، ونهلت منه حفظ الجسد واحترام القانون الإلهي.

يقترب وتقترب.. يترك وتترك.. يتعلق وتتعلق.. يحب وتحب.. يسعى للارتباط لكنها.. لا تريد ذلك.. وهنا كان الفرق.. كل الفرق!

لم تكن هي تبحث عن الحب بمفهومه الشرقي بما يحمل من استقرار والتزام وثبات، بل كانت تبحث عن التجربة، وتعميق أثر التجربة في حياتها من أجل الوصول إلى صيغة نهائية لرؤيتها لذاتها، التي كانت تحاول قدر الإمكان إبعادها عن التبلور وإبقاءها في حيز المرونة، حيث تبقى إمكانية التغيير والتبديل فيها متاحة دائما حسبما يستجد في عالمها.

أما هو فقد كان يبحث عن كل ما يقدم له السعادة ويحقق له الثبات والاستقرار والرقي والتحضر بما

يتناسب مع مفاهيمه الشرقية وفكره وأصول دينه التي لم يكن لينساها أيضا رغم علاقته العميقة.

تلك العلاقة التي لم تتوقف إلا بإصابة والده.

وربما جاء ذلك الحادث المؤسف كي يجنبه أسى ضخما كان من المحتمل أن يدخله في مزالق الانهيار..

فقد جاء خبر الإصابة خلال معمعة نقاشه مع الفتاة من أجل إقناعها بضرورة الانتقال إلى الخطوة التالية، وضرورة بلورة العاطفة وإعلانها تحت مسمى الارتباط. الاسم الذي كانت ترفضه هي شخصيا وتراه بعيدا عن حيز التطبيق حاليا.

عندما تركها وغادر سريعا لم يكن في نيته عدم العودة، بل كان ينوي العودة والاستمرار في مداولات الإقناع، وكان على يقين بأنه سيصل إلى إقناعها يوما ما إن أصرّ على ذلك.

ولكن بمجرد وصوله إلى منزل العائلة وإدراكه بأنه سيكون الشبل الوحيد الذي سيرث حماية عرين أسرته بعد زوال راعيها الأساسي عرف بأن العودة قد أصبحت أمرًا مستحيلًا على الأقل في المرحلة الحالية.

فأجّل عودته قليلا، ثم أجلها مرة أخرى.. وأخرى.

انتظر رسالة منها وعاهد نفسه في وقت ما أن يجعل رسالتها إشارة من السماء تستدعي عودته إلى الغرب.

مذهلة تلك الطرق التي يلجأ إليها الإنسان في تبرير تصرفاته ورغباته ومخاوفه، وربطها بومضة دينية أو

روحانية غير مثبتة.. كربط رغبة العودة برسالة وجعل الرسالة هي إشارة، ثم الوصول إلى يقين ثابت بذلك، رغم أن الله لم يثبت له ذلك، ولكن لكل منا وسائله في معالجة أحزانه وقلقه.

على كل حال لم تصله أية رسائل وبقي في مدينته مع أمه وأختيه اللتين تزوجتا خلال فترة وجيزة.

أما عمله فقد ازدهر أكثر من ذي قبل بعد أن أثبت جدارة أعلى من مستوى والده وعميه في إدارة العمل وتدوير رؤوس الأموال بشكل ناجح، وبصبغة تبدو فيها نكهة البرود الإنجليزي واضحة جلية.

-٤-

العم ديبو

يزداد الصخب في الخارج، هرج ومرج وأصوات كثيرة تجعلها تتعلق بالبقاء في غرفتها أكثر.

تنظر نحو ألعابها التي مازالت تحتفظ بها مصفوفة فوق الفراش. لقد كانت تعامل ألعابها بعدل وإنصاف، فلم تكن تلعب مع واحدة منها أكثر من الأخرى وقد خصت كلا منها باسم خاص.

ألعابها دائما مختلفة, فكثيرا ما كانت تضيف أشياء خاصة للملابس أو الشعر أو ترسم فوق الوجوه فتميزها.، الأمر الذي كان يستفز والدتها إلى المرحلة التي هددتها بأنها إن شوهت وجوه ألعابها بالرسم فوقها مرة أخرى فستحرمها من أية لعبة جديدة.

لم تكن طفلة سهلة الانقياد، ولم يكن من السهل السيطرة عليها، بل كانت تجد دائما طرقا جديدة لارتكاب الأخطاء.

لكن أخطاءها تلك لم تكن إلا بدافع التميز أو الفضول، أو نتيجةً لتأجج طاقة الاكتشاف التي تدفعها للتعرف أكثر على الحياة، ما تم كشفه منها وما تم إخفاؤه، والأخير تحديدا كان حافزا هائلا يوقعها دائما في الكثير من المزالق.

لم تستطع يوما خلال طفولتها ومراهقتها أن تسمع أحدا يتكلم همسا إلا وتدفقت الحماسة في عروقها

فجعلتها تحاول اكتشاف ما يحاول إخفاءه بهمسه هذا.

لم تجد بابا موصدا إلا حاولت فتحه، وإرضاء فضولها لمعرفة ما يكمن وراءه.

غرفة والدتها ـالمحرم على البنات دخولها في غياب الأمـ كانت بالنسبة لها الغرفة الأكثر إغراءً.

كثيرا ما دخلتها، فوقفت أمام المرآة وادعت بأنها أمها، وصارت تقلدها بمشيتها وشالها الحريري الأسود، وكثيرا ما فتشت فيها فوقعت على مقتنيات أمها الخاصة وألبومات صورها القديمة، وصور والدها.

شاهدتها كلها، واستمتعت بتأمل وجهي والديها عندما كانا أكثر شبابًا، ورؤية ضحكة والدتها في الماضي التي من النادر أن تراها في الحاضر.

كانت كلما تجاوزت خطا أحمر شعرت بسرور بالغ ظاهريا، وبذنب جديد يتراكم فوق تل الذنوب في قلبها الصغير.

قصص كثيرة في جعبتها حول فضولها وتجاوزاتها التي سببت لها المشاكل والعقوبات وساهمت بتطوير عقدة الذنب في داخلها.

واحدة من تلك القصص تقفز الآن إلى ذهنها، بينما تجلس في غرفتها تستمع إلى صخب المولد.

تذكرتها لسبب ما..

كانت لا تزال في الحضانة..

وكان من عادة إدارة المدرسة أن تجمع أطفال

المدرسة من جميع المراحل كل يوم خميس كي تقدم لهم عرضا مسرحيا للعرائس، باستخدام دمى يتم تحريكها بأيدي المدرسات الشابات من خلف ساتر بلاستيكي ملون.

كان العرض المسرحي يقدم دائما ضمن سلسلة تدعى قصص العم ديبو، والعم ديبو هذا ـوهو راوي المسرحيةـ عبارة عن دمية بأنف أحمر طويل ترتدي لباسا أشبه بلباس المهرجين وتضع طرطورا أحمر يهتز كلما تحركت الدمية.

كان معدًا لتلك الدمية أن تقدم المسرحيات وترويها ثم تقوم بإلقاء عبرة نهائية على الأطفال في نهاية العرض، بطريقة مباشرة وفجة في بعض الأحيان.

في أحد أيام تلك العروض وقبل أن يبدأ العرض بعدة دقائق أخذت إذنا من المعلمة كي تذهب إلى الحمام.

لم تكن من النوع الذي يستطيع الدخول إلى الحمام خارج منزلها، لكنها كانت تتعلل بهذا دائما في مدرستها كي تخرج إلى الفسحة السماوية الفارغة فتشرب قليلا من الماء وتعود متباطئة إلى الصف بعد ذلك.

عندما خرجت في ذلك اليوم مرت أمام غرفة صغيرة لا يدخلها عادة إلا المعلمات، يضعن فيها وسائل الإيضاح والألعاب التي تستخدم في مسرح العرائس.

وللمرة الأولى وجدت باب الغرفة مفتوحا، فأثارها الفضول وجعلها تقترب، لتجد معلمتين تقرفصان أمام كيس الألعاب، وتحاولان إيجاد واحدة من اللعب التي

يبدو أنها كانت مختفية.

- أين هو ديبو هذا، لا أستطيع إيجاده..

قالت إحدى المعلمتين.. فردت عليها الأخرى:

- لقد حان وقت العرض يجب أن نجد بديلا عنه.

إحداهما شعرت بوجودها، فقفزت نحو الباب وأغلقته بسرعة في وجهها بعد أن وجهت إليها نظرة غاضبة وأمرتها أن تعود إلى صفها.

عندما صار وقت العرض المسرحي، ظهرت فجأة دمية جديدة صفراء اللون، ادعت أنها قريبة العم ديبو الذي اضطر اليوم للذهاب إلى السوق، فطلب من قريبه أن يلقي المسرحية على أصدقائه الأطفال بدلا عنه.

عندما شاهدت هي الدمية الجديدة وسمعت ما تقوله، شعرت بغضب لأن الدمية تكذب عليها فنهضت وصرخت:

- أنت تكذب، العم ديبو غير موجود لأن المعلمة لا تستطيع أن تجده في كيس الألعاب، لقد ضاع العم ديبو. وهو ليس قريبك.

فوجئت المعلمات بكلمات الطفلة الغاضبة.

أما مديرة المدرسة التي كانت تحضر العرض كل أسبوع فقد أزعجها ما صرخت به الفتاة فقالت:

- العم ديبو مشغول اليوم ولن يستطيع الحضور، عيب أن تصرخي هكذا في الصف.

احتقن وجه الطفلة التي كانت على ثقة بأن اللعبة

ليست في السوق، لأنها مجرد لعبة مختفية من كيس الألعاب:

- لا، العم ديبو غير موجود لأنه لعبة، اللعبة لا تذهب إلى السوق.

- قلت عيب عليكِ أن تصرخي هكذا، انتهى الأمر ولا أريد أن أسمع صوتكِ أبدا، قلت لك العم ديبو في السوق. اجلسي!

- أنتِ كاذبة.

استشاطت المديرة غضبا فغمزت واحدة من المعلمات، التي قامت على الفور بسحب الطفلة إلى الخارج، وحُرِمَتْ في هذا اليوم من مشاهدة المسرحية.

لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فقد انتظرتها عقوبة أخرى في المنزل على تجاوزها حدود الأدب مع مديرة المدرسة، التي أطلعت الأم على ما جرى فورا.

حاولت إخبار أمها بأنها رأت المعلمتين تبحثان عن الدمية، وأنهم كانوا جميعا يكذبون خلال المسرحية، لكن الأم أنهت الأمر بأن هددتها بعقوبة شديدة إن كررت وقاحتها مرة أخرى.

لم تكن تستطيع حتى كطفلة احتمال الكذب المباشر، وهذا ما جعلها ترفض أقوالهم رفضا صادقا، ولكن كم من الأطفال المتميزين قد دفنوا تميزهم تحت أنقاض المظاهر.

ليتها اليوم تصبح كالعم ديبو، فتختفي فجأة من كيس

الألعاب، ليتها تعلن ثورتها عن كونها دمية تلبس في اليد فتتحرك كما جميع دمى المولد.

حتى العم ديبو رفض أن يكون مشاركا في مهرجان الكذب فاختفى فجأة وهجر كل تلك المسرحيات.. ربما هذا ما جعلها تذكره الآن..

هي ترى الجميع في هذا اليوم مجرد دمى متحركة في عرض كبير، اتحد فيه المؤدون مع المتفرجين حتى صاروا كتلة واحدة محبوسة في صخب المولد.. أما اليد التي تحرك كل هذا فلم تكن طبعا في نهاية الأمر إلا يد والدتها.

-٥-

النقيضان

لم يكن لقاء الأب بزوجته معدا مسبقا، على الأقل من جهته.

رآها صدفة، تخرج من منزل عائلته مع ثلاث فتيات وسيدتين، الأولى هي عمتها، والثانية هي صديقة والدته.

كانت في مقتبل العمر آنذاك، ربما في العشرين أو أكثر قليلا، لكنها بدت له أكبر سنا.

نظر في عينيها ببرود بمجرد أن فُتِحَ بابُ المنزل وظهرت هي من الداخل. لم يكن هو قد وصل إلى الباب بعد، بل كان يصعد الدرج بتمهل.

عندما فُتِحَ الباب.. تجمد في مكانه، وانتظر كأي شخص يقصد منزله فيجد بابه يفتح قبل وصوله بلحظات.

حملق في العينين السوداوين الحادتين بهدوء، ولم يكن ليزيح نظره أو ليتصرف بطريقة عرف المدينة «اللبق» بإشاحة النظر وإطراق الرأس واختلاس النظرات.

بل استمر بالنظر وانتظر خروجها كي يستطيع هو إكمال طريقه نحو باب منزله.

أما هي فلم تكن من الفتيات الخجولات اللاتي يخشين موقفا كهذا، بل نظرت نحوه بتحدٍّ وانتظرت،

ولمّا توقف هو ولم يكمل الصعود أشارت له بيدها إشارة تأذن له بإكمال طريقه مع استنكار بدا واضحا من طريقة تحريكها الانفعالي ليدها.

كانت تظن أنه من سكان الطوابق العليا وأنه ينتظر مرورها مستغلا الفرصة ليحملق ببروده المزعج، لكنها فوجئت عندما أشار لها بنفس البرود بإصبعه نحو الباب الموارب وراء ظهرها، وهنا ضاعت حدتها وعصبيتها واستُبدلا بارتباك تم استدراكه سريعا بخروج الفتيات والسيدتين من وراء الباب واستعدادهن للنزول.

تفرسته إحدى السيدتين المتقدمتين في العمر بمجرد مرورها البطيء بجانبه، ثم ابتسمت بعد برهة ابتسامة ماكرة وبدأت تغدق من أسئلتها الفضولية بصوتها المرتفع الذي لا تستطيع التحكم بطبقاته.. كحال كبار السن من أهل مدينته.

تأكدت بداية من أنه ابن صديقتها وقريبتها، ثم سألته عن دراسته وعمله. ولم تكتف بذلك بل حتى سألته عن عودته من سفره وعن نيته بالزواج وضرورة تسريع ذلك لأن الوقت قد حان الآن كي يقوم بتلك الخطوة.

كانت ككثير من النساء الطاعنات في السن؛ يعاملهن الجميع على أنهن فاقدات الذاكرة، ولكن تأتي المفاجأة دائما بأنهن الأقوى والألمع في التذكر والأرشفة الصحيحة وجدولة العزّاب والمتزوجين بأسمائهم وعناوينهم وأعمالهم وحتى بعدد أولادهم.

تلك كانت هي المرة الأولى التي جمعته مع زوجته

المستقبلية.

أما المرة الثانية فكانت مباشرة يوم ذهابه لخطبتها مع والدته..

كان الأمر شبه مرتب، والاتفاق السري قد تم بين المرأتين.. والدته وقريبتها التي كونت صلة الوصل مع عمة الفتاة.

لم تكن والدتها هي على قيد الحياة، ولذلك فقد قررت عمتها القائمة بأعمال العائلة في موضوع الزواج أن تبحث لها عن عريس مناسب من عائلة جيدة ومحافظة وبمستوى علمي ومعيشي لائق.

كان هو الشخص الصحيح تماما.

ولم يكن هو من جانبه ليعارض أبدا، فهي جميلة وابنة عائلة معروفة، وقد كان يبحث ـبعد تأكده من بقائه في بلدهـ عن الاستقرار مع إنسانة تناسبه، ذات شخصية قوية واستقلال وتميز، وتلك كانت ميزاتها الواضحة من وجهة نظره.

لم يتطلب الأمر بالنسبة إليه أن يعيش الحب بالطريقة نفسها التي حصلت في تجربته الأولى، لكنه تطلب فقط محاكمة منطقية بسيطة ويقين بأن الوقت المناسب للزواج هو الآن. والأكثر مناسبة أن تكون الفتاة التي سيتزوجها لا تشكل عبئا عليه بل على العكس تماما يجب أن تشكل قوة معه ودعما له، وهذا ما حدث فعلا.

كانا ـكزوجينـ ربما الأكثر تناغما من أي زوجين آخرين في المدينة.. كأنهما قطعتان عاشقتان لبعضهما،

تم وصلهما ببعضهما فالتحمتا التحاما لا يعرف الفكاك.

هدوؤه المدعَّم بحركتها، بروده الموازي لغليانها، عدم اكتراثه المنسجم مع أهدافها.

رغبته بقضاء بعض وقته وحيدا، خلال فسيفساء وقتها الثمين الموزع بين واجباتها الاجتماعية كامرأة أرستقراطية من الطراز الأول من جهة، وترتيبات انتماءاتها الدينية من جهة أخرى، والتي كانت تشغلها بالعديد من الواجبات من إقامة الموالد إلى إدارة عمليات الصدقات في محيط مجتمعها، ورحلات العمرة والحج وإلى ما هنالك من ترتيبات «متديني المدينة الأرستقراطيين» ونشاطاتهم التي كانت هي ذات فعالية ضخمة جدا فيها.

وعلى الرغم من انسجامهما وتناغمهما الفريد، فإننا لا نستطيع أن نعتبر أن هناك حوارا فعليا مزهرا بينهما، فقد كانت هي مشغولة دائما محدودة الاهتمامات، وكان هو شخصا قليل الكلام ـمعهاـ وكثير الابتسام.

كانت ذات ذوق راق جدا فيما يختص بفرش المنزل أدهشه وجعله يرتاح ويترك عبء الترتيب والتنسيق وإدارة المنزل بأكمله لها. ولعل التضارب الأول الذي واجهه في علاقته معها هو اتجاهه العقلاني نحو تذوق بعض الفنون ورفضها القاطع لفكرة الفنون بحد ذاتها خوفا من إعاقة «التصفية الروحية» حسب ما تعتقد.

ولكن لم يكن هذا ذا بال بالنسبة إليه خاصة في ظل شخصيته التي من الممكن لها أن تتستر على ميوله

وتخفي بعض رغباته الحقيقية.

كان متقبلا لإدارتها لأمور حياة الأسرة من جهة، ذلك التقبل الذي لم يكن ليمنعه من جهة أخرى من حضور حفل أو مسرحية أو فعالية موسيقية كل بضعة شهور.. لوحده.

لم تكن هي تعرف عن ذلك وكان يفضل ألا يخبرها سعيا وراء السلام العام الذي يحبه ويهتم جدا بالحفاظ عليه.

إخفاؤه لنشاطاته الصغيرة تلك كان أمرا مسلما به بالنسبة إليه ولا يشكل أي شعور بالذنب أو العبء أو أي تأنيب ضمير يحثه على إخبارها، بل على العكس من ذلك.. كان يشعر بأنه يحميها من إرهاق فكرها في قضايا ربما هي أوسع من إدراكها. وهذا أيضا ما جعله يعيش بطريقة ما حياة أخرى موازية شبه سرية فيها العديد من الأسرار التي لا يفضل البوح بها لزوجته دون أن يكون فيها أية تجاوزات دينية أو أية اختراقات لعهود الزوجية.

ولعله في حياته الأخرى تلك كان الأكثر شبها من بين أفراد أسرته بحياة ابنته؛ صاحبة المولد.

ولعل ذلك أيضا ما جعلهما الأكثر تفاهما بين الجميع، وكأن اتفاقا غير معلن قد جمع بين الاثنين وجعلهما في أحيان كثيرة يتعاطفان مع بعضهما خاصة في ظل الكثير من مواقف التأنيب والتذنيب من قبل الوالدة الشديدة.

في البداية كان اتفاقا شعوريا غير واضح، لكنه ما لبث أن توضح أكثر وأكثر مع الوقت وظهرت معالمه.

كان أحيانا يصطحبها معه في مغامرات ورحلات صغيرة سرية.. يلتقيان في مكان ما ثم يأخذها إلى حفلة موسيقية.. أو إلى مكان بعيد عن رفاهية منطقته.. يشاركها نفسه الحقيقية ويطلق لها عنان المشاركة بدورها.

كم جميل أن يجد المرء ولو إنسانا واحدا من عائلته يستطيع مشاركته بنفسه الحقيقية دونما أقنعة أو مواربة أو مواراة.

نفسه التي يحملها كما هي بمعتقداتها وطريقة تفكيرها بعيدا عن التقية والتبطين، ولكن واقعيا كم شخصا بيننا استطاع الحصول على ذلك!

اكتفى هو بفرد واحد وترك البقية لتشارك زوجته بطريقتها ومعتقداتها.

كانت ابنتاه الباقيتان تسيران وفق النهج العام المفروض للأسرة، خاصة الوسطى التي كانت نسخة عن والدتها.

أما هو فقد كان يشكل مع ابنته تلك فريقا ثنائيا متناغما، جمعتهما صداقة أو تماثل جيني دفعهما إلى الهروب من أنفاس الأسرة المتشابهة.

حتى أنها وفي وقت ما بدأت تسرب له القليل من أسرارها الشخصية كفتاة حديثة التفتح، ولكن لم يكن هو أيضا ليرقى إلى ذلك المستوى من الكمال كي يتقبل

صراحة تامة من ابنته، أو ليستطيع الدخول إلى عالمها بجميع ما فيه دونما شرط أو قيد أو رقيب.

فعلى الرغم من ميله نحو الانفتاح فإننا لا نستطيع تجاهل جذوره المتأصلة في تربته الاجتماعية.

فتقبله لصداقة من هذا النوع مع صغيرته لم يكن ليجعله يتقبل صراحتها المنفتحة في بعض الأحيان أو على الأقل أحلامها فيما يتعلق بالجانب العاطفي.

بل كان كثيرا ما يصيبه الارتباك عندما تبدأ هي بالتطرق إلى موضوع كهذا. الأمر الذي يدفعه للتهرب من الموضوع وتغييره.

كان يعي أنه لم يصل بعد إلى تلك المرحلة التي يستطيع فيها سماع أحوال ابنته العاطفية بحيادية تامة، ابنته التي مازال يعتبرها طفلة لا رغبات ولا هواجس لديها على الإطلاق.

كانت هي بدورها في أشد الحاجة لمن تستطيع إلقاء كل تفاصيل المعارك الدائرة في صدرها لديه.

كانت تبحث عن ملجأ وجدته بطريقة ما عند والدها، لكنه كان ملجأ محدودا كلما أتى الأمر إلى ما يؤرقها.

كانت في أشد الحاجة إلى المشاركة الكاملة غير المشروطة، المشاركة الحرة التي لا تقيدها عقوبة ولا يؤرقها ارتباك.

لربما كان البوح ليقدم لها حلا وراحة حقيقية، لربما كان من سبيله أن يجعلها تسترخي وتهدأ وتطفئ

اشتعال ثورتها الداخلية التي عمها التناقض ومسها الألم في وقت مبكر.

-٦-

الكبرى والوسطى

معظم المتواجدات في المولد كنّ من المحيط الاجتماعي للأم؛ سيدات العائلة.. صديقات.. جارات.. متدربات على الطريقة.. ساعيات وراء المنفعة.. مجاملات.. وأخيرا حاسدات.

خلعت معظم الفتيات اليافعات أغطية رؤوسهن خلال المولد، بينما أبقت كبيرات السن عليها، ومعهن صاحبة المنزل، لكنها سمحت لنفسها بوضع بعض اللون فوق الشفتين إعلانا لوجود الفرح.

لم تكن لتكشف شعرها في مناسبة كهذه أو ما شابهها من مناسبات، فقد كانت تعتبر الأمر تسيبا ومشابهة لصغار السن، وكانت أيضا تبحث عن تدريب دائم لنفسها على التواضع وتشكيل المثل الصالح في عقول وقلوب الأخريات.

لكن ذلك كان في جميع الأحوال من أمر المستحيل، فلم تكن واحدة من فتيات المولد إلا وتعتبر نفسها هي صاحبة المولد الحقيقية، وتحاول الحصول على دور البطولة بالظهور الحسن والتلوي واللين المفتعل وصباغ الوجه والغنج الناعم والأحاديث الجذابة الرقيقة مع كبيرات السن، لعلّ الدور يأتيها أخيرا فتخطبها واحدة من تلك السيدات لأحد أبنائها، وتصبح هي بطلة المولد الحقيقية.

بدأت الدفوف تأخذ إيقاعا أكثر فعالية، وبدأت الأكتاف بالاهتزاز والخصور بالتمايل والأيدي بالتراقص.

لكن أحدا من الحضور لم يجرؤ بعد على الرقص الاستعراضي، الذي تحبه الفتيات بشكل مهووس ويعتبرنه دليلا من أدلة صلاحهن للزواج وتدليل المجتمع الذكوري.

أختا صاحبة المولد كانتا الأكثر وضوحا والأكثر إظهارا للثراء من خلال ملابسهما الباهظة ذات العلامات التجارية المعروفة، ومكياجهما الدقيق وشعرهما الذي تم تصفيفه بأيدٍ محترفة وحتى أحذيتهما البراقة المزينة والمزركشة.

واحدة مطلقة والأخرى متزوجة.

الكبرى لها شكل وجه أمها وعينا والدها البنيتان، كانت قصيرة بعض الشيء وتميل إلى البدانة.

طُلقت منذ عام أو أكثر قليلا، تعيش مع ولديها في منزل صغير قريب من منزل الأسرة التي ارتأت إيواءها بشكل منفصل ومتصل في آن معا، في مكان مستقل وقريب كي تكون محل رعاية الأسرة الدائم ورقابتها المزمنة.

كان والدها يكفيها كل ما تطلب مع ولديها، وكانت والدتها تتكفل بكسوتها وظهورها الاجتماعي اللائق، أما زوجها فتركها ـبعد أن يأس من محاولة ضمها لمعسكره البعيد عن معسكر والدتهاـ بعد عدة أعوام كانت حصيلتها صبيين ومشاكل لا حصر لها. قرر أخيرا أن

يطلقها ويدفع لها مؤخرها الكبير مع تقبل فكرة حرمانه المبدئي من رؤية أطفاله، وكل ذلك لينهي فقط معاناته التي تفاقمت إلى حد الانهيارات العصبية.

لطالما حاولت والدتها إعادة تزويجها، ولطالما قدمت الكثير من المغريات المادية الخفية كي تصبح ابنتها مطمعا لأي زوج بسيط هادئ مسالم بإمكانه جمعها مع ولديها ولم شمل حياتها.

لكن وجه الفتاة البعيد عن الجاذبية، ووجود صبيين من أكثر الصبية شغبًا على وجه الأرض، وانتماءها إلى أسرة والدتها الأرستقراطية ذات السمعة المتشددة، كل هذا جعل من إعادة تزويجها أمرا مستحيلا، ليس بالإمكان حله أو حتى التحايل عليه.

أما هي فقد كانت راضية تماما بحياتها الحالية مكتفية بسلام الحياة الأحادية وهدوئها وتفرغها لتربية وتنشئة ولديها وفق طريقة ونصائح والدتها، والتي لم تكن في واقع الحال تفي غرضا في أمور التنشئة السوية وإبعاد الصبيين عن مشاكل العدوانية وبروز علامات الذكورة المبكرة بما تحمله من تناقضات وكسر لبراءة ولطف الطفولة الأولى.

الأخت الوسطى كانت هي الأجمل والأكثر جاذبية بين الأخوات الثلاث.

لها عينا والدتها ولكن بوجه أكثر استدارة وبشرة أشد بياضا، معتدلة الطول متناسقة القوام، تعرف كيف تزرع الفتنة في أي مكان تحلّ فيه.

لها ثلاثة أبناء ذكور وتحمل الرابع في بطنها.. أو الأحرى الرابعة بعد أن أجرت تصويرا كشف لها عن جنس الجنين منذ بضعة أيام قبل المولد، رغم معارضة والدتها لفكرة كشف جنس الجنين قبل مجيئه.

زوجها رجل ثري من عائلة مشهورة توازي بشهرتها وملكها عائلة والدتها.

تعيش حياة رغيدة ما بين اختفاء زوجها التام في عمله وحصولها على جميع ما يمكن أن يقدم الرفاهية في الحياة.

لم تكن لتأبه كثيرا لغيابه المستمر، فلديها ما يشغلها دائما مع والدتها حتى بعد أن نبا إلى سمعها بعض الهمسات الناعمة عن وجود منافسة خفية لها تحوم حول رجلها المشغول خلال سفره أو خلال ليالي عمله الطويلة التي يقضيها في الخارج. حتى بعد أن سمعت تلك الهمسات لم تكن لتشغل فكرها كثيرا بذلك، فكما تعلمت من أمها؛ الفكر غلاف القلب، والقلب وعاء إن ملأته بأمر.. شُغل عن أمور أخرى.

وهي قد ملأت قلبها وفكرها بأمور أكثر أهمية من انشغالات لا طائل منها وأوهام لا سبيل للتحقق منها أو ردها. كانت دائمة التواجد في منزل أسرتها، تقوم بأمور والدتها بأكملها، بل لعلها كانت المفضلة لدى والدتها والحاملة الحقيقية للواء طريقتها، بفكر مطابق وفعل مماثل وأرستقراطية متوارثة وسعة مادية عالية المستوى.. وما هو المطلوب أكثر من ذلك لدعم أي

طريقة جديدة أو أي مذهب منشق.

-٧-

الكبرى والوسطى والصغرى

كانت العلاقة التي جمعت الأخوات الثلاث مبنية بشكل عام على المحبة والتعاطف.

ولكن إن شئنا الدخول أكثر في التفاصيل، فسنجد أن كبرى الفتيات في الأسرة كان فكرها فعليا عديم التأثير في حياة الآخرين، ولم تكن توجه أحدًا، فقد كانت بلا ملامح شخصية محددة.

هي البنت البكر التي تلقت كل ضغوط السيطرة من قِبَلِ الأم حتى ذابت معالم شخصيتها وأصبحت مجرد عاطفة بحتة بلا قالب فكري واضح.

كانت سهلة الانقياد لينة المعشر، تحب العيش بسلام بلا مشاكل ولا تعقيدات. ولم تكن تعارض أي توجيه من والدتها إلا في بعض الحالات النادرة.

وكان من عادتها إن غُلبت على أمرها في شيء أن تنسحب إلى غرفتها فتبكي فيها بصمت، ثم تنهض بعد ذلك لتواسي نفسها بشيء مما تحتويه الثلاجة المليئة دائما بأصناف الطعام، الأمر الذي كثيرا ما نجح بمواساتها وجعل الحياة محتملة بالنسبة إليها، وفي الوقت نفسه جعلها تكتسب بعض البدانة بشكل تدريجي، على عكس أفراد أسرتها.

وهذا ما جعلها بعيدة كل البعد عن التأثير في أختيها، أو في طريقة تفكيرهما، بل على العكس فقد كانت

الأختان تسعيان جهدهما ألا تكونا كأختهما الكبرى مخدرتا التفكير.

وهذا أيضا ما جعل الوسطى وبشكل طبيعي تنبت بحضور عالٍ فوق أنقاض أختها، خاصة في ظل جمالها الواضح وجاذبيتها.

كانت معجبة بوالدتها وبطريقتها في إدارة الأمور، لم تكن تقلدها فقط بل كانت مقتنعة بفلسفتها في الحياة، ولهذا فقد كانت قوة شخصيتها هي العنصر الأساسي، الذي بنت فوقه كلَّ لَبِنَات نفسها من أشكال وصور وشعور، والذي دعمته محاولاتها الدائمة لنبذ الضعف المنفر في شخصية أختها الكبرى.

كان لا يخفى على الأم من طرفها هذا التميز وتلك الألمعية في ابنتها، التي كانت تفضلها على الأخريين، ولكنها تحاول على الدوام ألا تظهر ذلك، سعيا وراء العدل في المعاملة بين الجميع.

وربما كان العديد من ملامح قوة الشخصية التي تشكلت في نفس صاحبة المولد قد أتت من وراء احتكاكها بأختها الوسطى، وأيضا من اتباعها نفس النهج الفطري بالابتعاد عن تكرار ضعف الكبرى وانصياعها.

لقد كان انصياع الكبرى ضعفا إجباريا لا إرادة فيه.

وكان انصياع الوسطى قوة اختيارية وبملء الإرادة.

أما الصغرى فكان عدم انصياعها ثورة وتمردا بإرادة حرة.

ولهذا فقد كانت خطوط التأثير الأساسية المتبادلة بين الأخوات محصورة ما بين الثانية والثالثة دون الأولى، التي تزوجت أصلا في وقت مبكر وغادرت المنزل.

كانت العلاقة بين الأختين قوية متناغمة.

كانتا نِدين حميمتين في اللعب والنشأة، خاضتا معا الكثير من المغامرات في اكتشاف المنزل والحديقة وشراء الأكلات التي منعتا من شرائها، ومشاهدة التلفاز في أوقات الحظر، واستخدام أدوات مكياج والدتهما في المنزل خلال غيابها، وتجربة الملابس الخاصة بأختهما الكبرى المتزوجة في بيتها دون أن تعرف حتى هي بذلك.

فعلتا الكثير من الأخطاء، كسرتا العديد من المقتنيات، اقتحمتا الأماكن الممنوعة، نبشتا الأماكن السرية في منزلهما الكبير، استخدمتا الهاتف من أجل المعاكسة العشوائية، ورمتا الناس من الشرفة ببقايا قشور البرتقال.

كانتا طفلتين شقيتين بكل ما في الكلمة من معنى خلال غياب الأم، أما في حضورها فتعودان مثالا للهدوء والامتثال.

الركيزة الأساسية التي تحميهما من العقوبة في كثير من الأحيان كانت السرية التامة، والإبقاء على كل ما تفعلانه من شغب بعيدا عن ساحة الاعتراف.

لقد كانتا ملجأ حقيقيًا لأسرار بعضهما خلال الطفولة، وهو أمر ربما لو استمر لشعرت صاحبة المولد بالانتماء

أكثر إلى محيطها خلال مراهقتها، لكن هذه المنحة قد توقفت ليظهر مكانها تدريجيا تحفظ وحذر بعد عدد من التجارب السيئة اضطرت معها للكفّ عن إيداع أسرارها لدى أختها.

كان ضغط الأم هو السبب في اضطراب الرابطة بين الاثنتين، التي كان من الممكن لها أن تشكل اتحادا يجعل كل قواعد وممنوعات المنزل تذهب أدراج الرياح، لذلك كان لابد من دخول الأم بينهما في مرحلة ما لمعرفة ما يجري وراء ظهرها.

وهذا ما حدث عندما بدأت الأخت فعلا تفشي عددا من الأسرار لأمها تحت الضغط، الأمر الذي لم تكن الصغرى لتفعله على الإطلاق مهما زاد عليها الحصار.

كان من الأهون عليها أن تعترف على نفسها إن اضطرها الأمر وألا تفشي سرا خاصا بأختها.

وهنا يظهر الفرق وتبدأ الحواجز..

وفي حقيقة الأمر، لم يكن فعل الأخت الوسطى هذا ـالتي كانت قد دخلت في أولى مراحل المراهقة آنذاكـ ناجما عن ضعف أو مكر أو اهتزاز في محبتها لأختها، بل كان نتيجة قناعة راسخة بوجوب الانحياز إلى «الخير المطلق».

فقد كانت في معظم المرات مقتنعة بأهداف والدتها وخوفها عليها وعلى جميع أفراد العائلة، لقد كانت ترى في أمها ذلك «الخير المطلق» الذي لا تجب مخالفته، بل على العكس، تجب معاونته من أجل الوصول إلى

الصيغة المثلى في الحياة.

مع هذا الاهتزاز البسيط بين الأختين بدأت خيوط ناعمة من الغيرة المتبادلة بالظهور.

الصغرى تغار من جمال الوسطى التي بدأ جسدها يكبر بسرعة وتبرز معالمه الأنثوية بوضوح، وتغار أيضا من حظوتها لدى والدتها التي تحاول إخفاء ذلك.

والوسطى تغار من تحرر الصغرى وفلكها المختلف، وعدم مبالاتها بضوابط الأم، وأيضا من وضوح ميل والدها إليها.

كانت غيرة إيجابية تعزز التطور بالنسبة للأخت الوسطى، لكنها كانت في الوقت ذاته غيرة سلبية تعزز الانعزال والتقوقع بالنسبة لصاحبة المولد.

ربما لولا ما تحمله الحياة من تغيرات قسرية في نفس الإنسان ـخاصة في منعطفات المراحل العمريةـ لكانت تلك الأخت قد أصبحت ملجأ صاحبة المولد الأساسي في حياتها. وكان هذا هو ما سيشكل فرقا كبيرا في النشأة والتكوين، ولكن في نهاية الأمر لا وجود لتلك العلاقات المثالية الخالية من الشوائب بين البشر، فالنفس البشرية مستودع هائل تعبث فيه عوامل التغيير كل لحظة فتغير الكثير مما لا يمكننا ملاحظته في الوقت الحاضر، ولكننا سنرى تأثيره الواضح مع تقدم الزمن.

-٨-

هـو

توقفت الدفوف للحظات قليلة استعدادا للنشيد القادم فتفاقمت الحركة النسائية العشوائية بين الاستعداد لما سيأتي وتوزيع الطبق التالي من الحلويات الفاخرة.

بعيدا عن الضجيج، مازالت تغلق على نفسها باب غرفتها.

تجلس أمام المرآة كما اعتادت دائما أن تفعل منذ أن كانت صغيرة.

تحدق في عينيها. كثيرا ما انتظرت أن تبعث روح في الانعكاس، وأن تقوم صورتها المنعكسة بمحادثتها.

انعكاس شخصي له القدرة على فك العقد وإتاحة الفرصة أمام صاحبه ليرمي كل ما أنهكه لسنوات، وكل ما حمله في صدره دون أن يستطيع البوح ولو لمرة واحدة كما ينبغي لمن ينبغي.

لعل بوح النفس أمام النفس هو ما حلم به الكثير منا. أن تتجسد النفس فجأة فيستطيع المرء التعري وبسط الحقائق دون خوف أو خجل.

أن يستطيع ترك كل ما أخجله حتى على صعيد الاعتقاد، فيفك الحصار الخانق عن حقيقته الخاصة أمام مخلوق مكون منه شخصيا قادر على الاستماع والتفهم وحتى النصيحة. مخلوق له صوت، له حس مقابل، وله حضور قائم بذاته.

تنتظر دائما في جلوسها أمام المرآة أن تمارس البوح المطلق أمام مثيلتها الناظرة إليها، أن تطلق كل شكوكها ومخاوفها وأسئلتها البسيطة والمحرجة.. أن تعبر عن رغباتها المدفونة والمكبوتة.. أن تسأل..

أن تحلم بصوت مرتفع وتتحدث عن أحلامها بلا خوف.. أحلامها التي من الممكن أن تعاقب عليها وتضيف المزيد من عقد الذنب في نفسها المعترضة وروحها التي لا تستطيع تقبل التدجين.

تتوقف الدفوف فتنتبه لتوقفها..

يصيبها رعب من قدوم ساعة الصفر، لكن عودة النقر بعد عدة دقائق يجعلها تعود من جديد إلى مرآتها.

عندما كانت طفلة أخبرتها صديقة لها أنها رأت فيلما مرعبا عن فتاة أطالت النظر في المرآة حتى صارت المرآة معبرا نحو عالم مقابل تختلف فيه الأشياء عن العالم الحقيقي، حيث تصبح كل الأشياء معكوسة، حتى القيم والأفكار والمعتقدات.

بقيت الفكرة تشغل عقلها. صارت تحاول تركيب شخصيتها من جديد بناء على التعاكس.

حاولت أن تعكس كل شيء في عالمها، فتوصلت إلى نتائج عجيبة وصارت الأمور بالنسبة إليها لانهائية.

أي قانون من الممكن عكسه وتخيل نتيجته، أي قاعدة من الممكن عكسها والتفكر بمعطياتها الجديدة، أي موضوع فُرِضَت حوله الهالات المرعبة منعا لمناقشته من الممكن تحويله ليصبح أمرا بسيطا عفويا مسموحا

تداوله والخوض فيه وبجميع الطرق والوسائل.

منذ ذلك الوقت صارت المرآة صديقتها، وبقيت على انتظارها لفتح المعبر نحو العالم الآخر. العالم الذي سيعكس الحقائق فتبدو تلك الحقائق الثابتة مجرد افتراضات من الممكن تبديلها والتلاعب بمفرداتها.

تجلس الآن.. تفكر فيما لو فتح المعبر ماذا كانت لتفعل كي تعكس قدرها؟

هل كانت لتخبر والدتها بأنها حتما ستؤجل الزواج أو ربما ستلغي الموضوع بأكمله؟

لم تكن تكره خطيبها. لقد كان شخصا بسيطا ناجحا يكبرها بثمانية أعوام.. يجسد الخبرة والرجولة بمفهوم عائلتها.

مربوع القامة، شعره بني ممهد بفرق يميني، مع سالفين طويلين بعض الشيء، له شارب كثيف لكنه مهذب بعناية فائقة. لا علة في شكله على الإطلاق، ولا تميز أيضا.

كان شخصا لا يمكن تصنيفه أو ملاحظته في الشارع للشبه الذي يجمعه بمعظم المارة الآخرين، من أولئك الذين إن قابلهم المرء لمرة أو مرتين قد لا يستطيع تذكرهم لاحقا بسهولة.

عندما رأته أول مرة شعرت بنوع من الدغدغة في أسفل معدتها. نظرت في عينيه فشعرت بدفء.

دفء من الصعب شرحه أو وصفه.. إلا أنه مجرد دفء

يجعل النفس تستكين لأمر هو في كل الأحوال ليس باختيارها.

أُخبِرَتْ بأنها ستكون خطيبته.. فابتسمت.

كانت عطشى لوجود شابّ في حياتها، طرف جديد من خارج إطار الأسرة.

تمّت الأمور سريعا ووضعت في إصبعها خاتما أو «مَحبسا» كما يحب أهل مدينتها تسميته وتكره هي تلك التسمية.

كان المحبس من اختيار خطيبها ظاهريا، لكنه في حقيقة الأمر من اختيار والدتها.

ويبدو أنها بمجرد يقينها بأن خاتمها كان من اختيار الوالدة تملكها شعور قديم بالثورة وعدم التقبل.

لم يكن في نيتها أن تضع رَجُلَها القادم ضمن دائرة ثوراتها وعنفوان رفضها، بل كانت تنوي أن تهرب من عالمها إلى عالمه.

لطالما حلمت بذلك الهروب نحو عالم الشاب المحبوب الذي سوف تضع كل حياتها بين يديه وترمي كل ضغوط قيودها بمجرد الدخول في دائرة حياته وحرمة منزله.

لكن المحبس كان إعلانا مريبا لعكس ما تأملته، وهذا ما دعاها في كثير من الأحيان لخلعه من إصبعها بمجرد خروجها من المنزل.

من جهة أخرى لم يمنعها ذلك المحبس من المحاولة الجادة لإقامة جسور الودّ مع خطيبها.

في كل خلوة استطاعا الهرب إليها قليلا من عيون الرقابة العائلية خلال الخطبة كانت تبث أفكارها وتبدأ بتقديم مونولوجها الداخلي بشكل علني أمام رجلها المستقبلي.

حاولت دفعه للإفصاح عن عالمه المختلف.

ذكاؤها الفطري وحساسيتها العالية جعلاها بارعة في قيادة عجلة مواضيعها وسبر أعماق شريكها.

كان خجولا لكنه يملك في الوقت ذاته عالما ضخما من المكبوتات الحسية الخفية، التي تحتاج تحريكا ونفضا لغبار الكتمان الذي دام لسنوات طويلة قبل أن يتاح له التعبير عنه وأمام فتاة حقيقية.

في نهاية الأمر هو سليل عائلة تتعاطى مفردات الدين بنفس طريقة عائلتها، لكنه مختلف عنها شخصيا بقلة التيقظ وضعف الحساسية وانعدام مفهوم التمرد.

كان طيبا، ذكيا فيما يتعلق بأمور العمل، لكنه لا يخلو من سذاجة فيما بتعلق بأمور أنثاه المختلفة.

كبته الطويل جعله يغوص في حرج وخجل وسماجة تبدو واضحة في بعض ردود أفعاله العاطفية المفاجئة، التي تأتي دون مقدمات صحيحة فتكون نتيجتها دوما انقباضا سلبيا من طرفها وارتباكا طويل الأمد من طرفه.

بدأت أولى المفاجآت بالنسبة إليها خلال أول خلوة لهما بعد كتب الكتاب..

فقد أُحِلّ لها كشف رأسها لأول مرة أمام رجل.

ارتدت رداء جميلا يكشف بعض مفاتنها..

رآها.. فازدادت ضربات قلبه!

تأمل شعرها المفرود. ولعل شعرها الأسود كان أجمل ما فيها إذا ما قورن بوجهها البسيط الذي لا يميزه أيّ من مفردات الجمال التقليدية.. وجسدها الدقيق الذي يستطيع المدقق فيه أن يكتشف طول الذراعين أكثر من المعتاد وتقوس الكتفين وضيق الحوض.

لكنه لم ينتبه لكل هذا، بل صدمته رؤية شعرها الحرّ مفرودا وذراعيها اللينين مكشوفين وحمرة الخجل تعلو أعلى خديها فتضفي هالة خمرية فوق وجهها.

لكن ما جعل نبضه يصل إلى أذنيه هو نظرتها المتراقصة البعيدة عن الخجل والمناقضة للاحمرار الذي يطفو فوق وجنتيها.

كان مستثارا وخائفا بآن معا.. ولا يعرف ما الذي ينبغي عليه فعله..

أما هي فقد كانت مستثارة وفرحة، ينتابها شعور من خلع أطنانا من القماش عن جسده في يوم حار، ثم وقف لأول مرة في الهواء الطلق يلامس النسيم الحر كل جزء من جسده بلا خوف ولا ذنب، فالرجل يعتبر زوجها الآن، ولها أن تتحرر أمامه وتكشف شعرها وما تريد.

كانت أشبه ما تكون بفراشة تحررت حديثا من شرنقتها وتركت كينونتها كيرقة بلا جناح، لتصبح أجمل مخلوق بأجمل جناح وأخف جسد وألطف ماهية

للتحليق!

وشعرت فجأة بأنه يشبه مرآتها التي تخلع أمامها كل غطاء يمنع ظهورها الحقيقي، وتتزين أمامها فتظهر زينتها على حقيقتها، ويظهر جمالها كما تحب أن تظهره، وكان شعورا جميلا.. متسرعا قليلا، لكنه جميل.

-٩-

القبلة الأولى

تنظر الآن في المرآة. المشاعر ذاتها التي تلاعبت بها في ذلك اليوم.. تعاود التلاعب بها اليوم.

تحاول أن تخبر معاكستها في المرآة بقصة الملامسة الأولى التي حدثت بينها وبين الرجل الأول الحقيقي في عالمها.

كانت المبادرة له، وقد نستطيع تجاوزا تسميتها مبادرة.. فهي ـوكي نصفها بدقةـ أكثر شبها بالانقضاض العشوائي أو التحرك الغريزي البدائي.

جلست بجانبه مستمتعة بكل ذرة هواء تلامس عنقها وما تحت أذنيها.. وسعيدة بأنها تظهر بشكلها الكامل لأول مرة منذ أن أصبحت شابة يافعة.

تظهر بشعرها وزينتها وذراعيها وثوبها الجميل.

فور جلوسها بجانبه استطاع استنشاق عطرها الذي شلّ إحساسه بكل شيء آخر عداها.

كان العبق ساحرا، شديد التأثير عميق المفعول دائم التواجد بلا طغيان. يليق بعطر اختارته والدتها ودفعت ثمنه الباهظ.

كلما حركت ذراعا انطلقت موجة من العبير الطيب لتشكل سحابة وهمية تمطر فوق رأسه كل رغبات الكون.

عندما جلست ساد صمت مربك ما لبثت هي أن أزالته

بغزارة حديثها. أخبرته عن سعادتها الغامرة لظهورها بزينتها أمامه، وأنه حدث عظيم أن تفك الفتاة شرنقتها لتطلق جمال جناحيها أمام رجلها لأول مرة.. ثم أغمضت عينيها وبدأت تغوص أكثر في الوصف والكلمات لعلها تستطيع الإحاطة بهذا الشعور اللطيف والمثير بآن معا.

استرخت مفاصلها وشعرت فجأة بأنها تكلم مرآتها فمستها راحة لا سبيل لوصفها، كأنها تتحرر من كل شيء دفعة واحدة، وبدا الأمر وكأنه حلم.. لا حقيقة.

أرجعت رأسها إلى الوراء كما يفعل المرضى عند الطبيب النفسي وبدأت البوح بعيون مغمضة وبدن مسترخٍ استرخاء جميلا، ورجل يجلس قبالتها يستمع إلى بوحها السري.

كم تمنت أن تزور عيادة نفسية من قبل. تمنت أن تلقي رأسها إلى الوراء وتخرج كل ضيقها وضعفها ومخاوفها على مسمع منها ومن إنسان آخر يتنفس ويشعر وينام ويأكل.. إنسان حقيقي لا مرآة.

فتنتها الفكرة لدرجة أنها احتفظت ببعض أرقام عيادات أطباء نفسيين لربما واتتها الجرأة يوما ما لزيارة أحدهم.

لكنها بمجرد أن أرجعت رأسها وأغمضت عينيها بحضور خطيبها نسفت فكرة الطبيب، فقد حصلت على طبيبها وسامعها أخيرا؛ ألا وهو رجلها وملجأها الآمن. ولم تكن لتتوقف عن كلامها المسترسل لولا أن شعرت

فجأة بوخز مزعج في فمها يشبه دبابيس صغيرة تهاجم شفتيها.

فتحت عينيها لتجد شعر شاربه الخشن قد دخل في فمها ورأسه ملاصق تماما لرأسها.

كان قلبها على وشك التوقف..

صدمة هائلة جعلتها تتجمد للحظات دون أن تستطيع رفع يدها.

وحيث أن الرجل قد بدأ مغامرته الأولى في حياته من دون أية معارضة فقد استمر في هجومه المباغت وانتقل إلى المرحلة الثانية وفق مفهومه البسيط، حيث انفرجت شفتاه بشكل تلقائي وتحركت يده لتلمس وجهها وكتفيها بشكل مندفع.

عندما شعرت بوقع لسانه فوق شفتيها المغلقتين بإحكام بدأ انقباض ما يصيب أعلى معدتها، وتحولت دغدغة التحرر من الشرنقة في لحظة واحدة إلى سكين أو قبضة من نار استحكمت أعلى معدتها وتسببت بنوبات غثيان مفاجئ لا تبدو له نهاية.

كانت كالمشلولة، وكأن مخدرا قد شلّ حركتها، أو كأنها تحت قبضة كابوس عنيف يربط أعضاءها ويفترسها فلا نجاة إلا باستيقاظها وعودتها إلى الحياة الحقيقية.

ولم يكن هو بأفضل حال منها، فالخدر أيضا كان قد وصل إليه قبل أن يصل إليها.

بمجرد إغماض عينيها كانت كلماتها بالنسبة إليه تشكل

نغما بلا معنى، نغما متناغما مع العطر النفاذ والرقبة الطويلة العارية.

ثقافته المحدودة في هذا المجال هيأت له أن فتاته تعطيه إذنا بالتقدم أو تصريحا مستسلما بالدخول، وكأن كل حركة من حركاتها كانت إلماحا له بالانقضاض.

لم يكن ليستطيع قراءتها بالشكل الصحيح. ربما لا يمكننا لومه على ذلك، فكل إنسان قد تعود قراءة الأشخاص ضمن المعطيات التي شكلت عالمه الشخصي، ولهذا فأنّى لشخص مثله أن يستطيع إدراك حالتها أو فكرة بوحها وشرنقتها وما إلى ذلك من الأمور الروحية العميقة؟!

لم تكن بالنسبة إليه إلا فتاة سعيدة بوجوده إلى جانبها، وقد كشفت له عن مفاتنها إيذانا له كي يبدأ خطوته الأولى بالتعرف الجسدي عليها.

فتحت عينيها بشدة، حاولت تنبيهه بنظراتها التي أصابها الرعب، وأنينها المضطرب، لكنه كان يبدو كمن ألقي في وادٍ سحيق، فأغمض عينيه هو الآخر إلى الأبد، وكأنه بدوره أيضا قد جاءت ساعة بوحه الخاصة التي انتظرها طويلا وتحققت أخيرا؛ ساعة بوحه بأنه رجل، يحتاج أن يلقي أيضا ما عنده بحرية لدى أنثاه.

اكتشفت في لحظة ما أن رأسه كبير للغاية. لم تكن قد اكتشفت ذلك من قبل.

كان وجهه ضخما مقارنة بصغر وضيق وجهها هي.

تذكرت رأس الجاموس فزاد الأمر من غثيانها

وتقلصات بطنها.

في لحظة ما استطاعت رفع يدها كي تصده، خاصة عندما تجاوزت يده حدّ اللمس الطبيعي الذي من الممكن السكوت عنه، لكنها لم تكن تمتلك القوة لدفعه.

حاولت تنبيهه بنقر متواصل على كتفه لكن حتى طلقات الرصاص الحقيقي لم تكن كفيلة بإبعاده في هذه المرحلة!

لم يكن قادرا على إبعاده إلا الملوحة المتزايدة المتسربة من فمها المغلق إلى ما بين شفتيه المفتوحتين.

ولما بدأت تلك الملوحة تزداد بازدياد السائل المنبثق إلى الخارج فتح عينيه وعاد إلى وعيه بثوان تتوازى مع ثواني خروج القيء.

لم يكن موقفا يحسدان عليه كلاهما؛

هي تبكي وتحاول النهوض وكفكفة القيء..

أما هو فكان كمستيقظ من غيبوبة تشبه غيبوبة أهل الكهف.. وعيه فارقه للحظات ولازمه الذهول مع نثرات القيء التي وصلت إلى قميصه الجديد.

القيء الأول

يستمر المولد.. وتأخذ الأهازيج طابعا أكثر غنجا بعد الأناشيد الأولى ذات النكهة المتحفظة.

تستطيع من مكانها أن تسمع بعض ألحان الأغاني الدارجة التي تم تحويلها فأعطيت كلمات جديدة كي تصبح أغنية ممسوخة بنفس اللحن القديم وبكلمات أكثر حداثة. ولا حاجة للتنويه بأن اللحن الأصلي في حد ذاته لا يعتبر لحنا بالمعنى الموسيقي، فهو في الأصل أكثر شبها بتعبير بدائي قبلي يستخدم النقر والصراخ كي يعبر عن نفسه.

لحن كهذا مع كلمات أكثر احتشاما وتحفظا بتوجه صوفي كان كفيلا ببث الجنون في نفسها.

تعيد نفسها من جديد إلى وضعيتها المتأملة.. تبحر في عينيها أو عيني شخصيتها الأخرى.

تستعيد المشاهد.. الأثر المزعج للقبلة الأولى.. أو بالأحرى للقيء الأول.

الأثر الذي لم يترك في نفس رجلها أكثر من دهشة وانزعاج مبدئي ما لبث أن تلاشى بشكل تدريجي وسريع مع مرور عدة أيام وبمعونة من قلبه البسيط الذي لا يعرف الخوض في متاهات النفس ولا يحب ذلك أصلا.

أما هي فكان الأمر بالنسبة إليها يسير باتجاه معاكس

تماما، فحادثة القيء تلك خلفت في روحها جرحا عميقا، إن شفي بأحسن الأحوال فسيترك ندبا باقيا للأبد، وإن لم يسعفه الحظ بالشفاء فسيبقى مفتوحا حتى التعفن.

وحقيقة الأمر أن ما حدث في نفسها هو تراوح غريب ما بين الحالتين السابقتين: الندب والجرح المتعفن.

لم تكن تلك الحادثة المشؤومة لتغادر فكرها بسهولة.

ولم تكن هي تتوقع ولو للحظة واحدة أن تكون ردة فعلها بهذا الشكل. لم تكن تنتظر أن تكون القبلة الأولى التي رسمتها في مخيلتها وأحلامها ذات نتيجة عضوية آخر مطافها هو القيء.

لم تستطع فهم ما حدث ولا معرفة أسباب تلك التجربة السيئة، لكنها استطاعت دوما أن تلقي اللوم على نفسها بشكل جلي في هذا الأمر لتضيف إلى عقدة ذنوبها ذنبا جديدا أكثر إزعاجا، مع لوم مبطن موجه نحو خطيبها البسيط.

كانت تشعر بأنها غريبة ومتناقضة، وفي الوقت ذاته تشعر بأن في رجلها خطبا ما لا تستطيع بعد إدراكه ولا فهم أبعاده.

كلما أرادت وصف خطيبها اعترفت لنفسها بأنه رجل طيب القلب، وبأنها غريبة ومعقدة، ثم تعكس الآية لتخبر نفسها من جديد بأنه ربما كان ساذجا، من أولئك الذين لا يعرفون كيفية بناء علاقاتهم مع زوجاتهم، أو الفتيات اللاتي سيصبحن زوجاتهم.

وفق قانون المدينة هي تعتبر زوجته الآن، حتى وإن

كانت لم تنتقل إلى بيته بعد، وما نقر الدفوف في الخارج إلا إعلان نهائي لانتقالها وخروجها من منزل أبيها إلى الأبد.

فهل ستتقيأ اليوم أيضا؟ كم يخيفها ذلك.

هل ستحمل الساعات القادمة إحراجا مشابها لما وقعت به من قبل؟ ربما إن تناولت بعض الحبوب المهدئة أو المرخية للمعدة ستتجاوز كل هذا وستمر الليلة على خير.

أي خيرا! وهل ستحتمل أن يقترب منها من جديد؟ كيف لها أن تواجه الوقت الذي يحمل كل ذلك العبء ويقترب منها دون رحمة؟

ربما من الأفضل لها أن تغمض عينيها وأن تدعي أن الأمور بخير، لقد كانت تفعل هذا أحيانا عندما كانت طفلة، كانت تخفي الواقع المزعج بإيقاف النظر إليه. لقد نجح الأمر عدة مرات عندما كان يتعلق بخوفها من نافذة غرفتها ليلا، أو ظلال طرف خزانة الملابس المزخرفة، الذي يشبه رأس وحش له أنياب.

هل إن أغمضت عينيها الآن سينتهي كل شيء؟ أم لعلها تغمض عينيها عندما يتقرب هو منها في ساعة الصفر التي لا يفصلها عنها إلا القليل.

تضع يديها على وجهها فتغلق عينيها وتضغط فوقهما بقوة، لعل الحل الطفولي يأتي بنتائج سحرية.

تسحب يديها من فوق وجهها بعد برهة وتفتح عينيها فتشاهد بقعا سوداء من آثار الضغط، يظهر بعدها وجهها

تدريجيا في المرآة من جديد.

تنظر نحو يديها فترى بعض مساحيق التجميل قد تركت أثرها على أطراف أصابعها.

لم يفلح الأمر، لم يختفِ الواقع الكريه..

لم يكن من المفترض أن يكون انتقالها سريعا إلى هذه الدرجة، ولا أن تقام حفلة عرسها في منزل العائلة، لكن أمرا ما قد استجد في سير الأحداث ما بعد القبلة الأولى جعل والدتها تقدم تاريخ الحفل وتقوم به في منزلها خلال ثمانية أيام.

ولعلها الوحيدة القادرة على صنع حفلة عرس في منزلها مع هذا العدد الهائل من السيدات، ومع كل ما يتطلبه الحفل من طعام وترتيبات وخدمة وألبسة.. وكل ذلك خلال ثمانية أيام فقط.

لم يكن ما حدث خطيرا، لكن الوالدة التي كان لها وجهة نظر مختلفة ارتأت أن ما اكتشفته يتطلب إنهاء فترة الأرجحة التي تؤذي ابنتها، ويتطلب أيضا أن تنتقل الفتاة سريعا إلى منزل زوجها، وأن يغلق باب الفتنة في وجهها، وأن تصرف كل طاقاتها المفرطة مع رجلها فقط.

وحقيقة الأمر أن ما اكتشفته الأم لم يكن ليستدعي تقديم مولد العرس، بل يستدعي تأجيله وربما حتى إلغاءه بشكل نهائي، لكن مجتمع المدينة المحاصرة ما بين التصوف الشعبي والتدين الشكلي الأرستقراطي قد يفرض في كثير من الأحيان أحكاما لا سبيل لإيقافها إلا بالموت.

-١١-

المكتبة

في الغرفة المحاذية للصالونات التي يقام فيها المولد توجد غرفة جانبية هي غرفة المكتبة.

فيها مكتبة ضخمة جدا متوارثة ما بين العائلتين؛ عائلة الوالد وعائلة الوالدة على اختلاف اهتماماتهما الثقافية والأدبية وتقارب منشأهما الديني.

مكتبة غنية فيها نسيج متنوع مما أنتجته الحركات الفكرية الدينية القديمة والمعاصرة. فيها العديد من أمهات الكتب التاريخية القيمة والكثير من المصنفات الأدبية والنثرية الشعرية.

فيها كتب الفقه بأنواعه وتفرعاته وكتب مقارنة الأديان بالعربية والإنجليزية التي بقيت من تراث دراسة رب الأسرة التي لم يفقد هو شخصيا أمله منها بل بقي على مطالعته الدائمة لها.

ولعل أكثر ما يميزها كمكتبة رغم احتوائها على الغث والسمين هو اهتمامها الملحوظ بالتراث الصوفي كاملا ابتداء من التصوف الفلسفي الفكري بما يحتويه من فكر وشعر ونثر وتبحر بعقائد أهل الوصل والوصال ووصولا إلى آخر مرحلة من مراحل التصوف الشعبي مع كل إرهاصاته وترهاته وتهويله وابتعاده عن جادة الصواب. بما في ذلك قصص أهل الحال والكشف وحكايات الصوفية وبطولاتهم وأوصافهم وصفاتهم وأسس

طرقهم المتنوعة والعديد من الكتب الصفراء.

وانتهاء بمجموعة كبيرة مما أُلِّفَ عن الصوفية من مديح ودعم وتفصيل، والرد على كتب القادحين فيها دون وجود فعلي لهذه الأخيرة في المكتبة.

ورغم الرقابة التي كانت تمارسها الأم على غرفة المكتبة والقانون الذي ينص على الاستئذان قبل استعارة أي كتاب منها، هذا إن تمت الموافقة من قبلها شخصيا على استعارته، رغم كل ذلك فإن هذه الغرفة تحديدا كانت الغرفة الأكثر جمالا وسحرا بين غرف المنزل بالنسبة لصاحبة المولد منذ أن كانت في مراحلها العمرية الأولى، حيث بدأت باكتشاف خفايا المنزل الكبير والتسلل إلى الغرف الجانبية، خاصة تلك الغرف التي لا يدخلها أفراد الأسرة كثيرا كغرفة المكتبة وغرفة مكتب الوالد.

الأثاث الخشبي القديم والسجاد الفارسي العتيق مع المكتب الأثري رفيع المستوى الموروث عن جد العائلة الإقطاعي، مع امتداد المكتبة الضخمة لتحتل ثلاثة جدران بأكملها مما يعلو الأرض بمتر واحد أو أكثر قليلا. وصولا إلى السقف المزخرف بعروق الجبصين مع إطارات من الأرابيسك حديث الصنع.

كل هذا المزيج، مصحوبا بعبق الورق العتيق، جعل الفتاة الصغيرة تحب تلك الغرفة وتعتبرها ملجأ قدم لها الحماية في كثير من الأحيان عندما كانت تهرب من عقوبة أو ذنب فتختفي عن الأنظار تحت المكتب

بانتظار سقوط الذنب بالتقادم أو النسيان.

خلال عامها الخامس عشر بدأت رائحة الكتب وألوانها تجتذبها أكثر.

تقرأ من العناوين ما لا تفهم منه شيئا إلا الحروف، فتنتقي الكتاب حسب شكل غلافه، وتحاول تصفحه بمجرد أن أعجبها الغلاف.

كانت تعتبر هذا ولاء لجمال الغلاف وانتماء لجاذبيته التي اضطرتها أن تختاره من بين آلاف الكتب التي تطالها يدها حتى الرف الخامس، إذ ما ارتفع فوق الخامس كان حتى ذلك الوقت عصيا عليها.

وقع في يديها العديد من الكتب، منها القيم ومنها الفارغ، منها ما يمكن أن يناسب مرحلتها العمرية وعقلها الفتي، ومنها ما يمكن أن يشكل ألغازا معقدة قد تضفي تعقيدا أكبر على حياتها وتكوينها الفكري.

كانت كلما كبرت قليلا استطاعت الوصول إلى الكتب في الرفوف الأعلى، واستطاعت أيضا فهم مكونات المكتبة بشكل أكبر والدخول إلى عالم الكتب وعوالم مؤلفيها أكثر وأكثر.

حتى الطفل أو المراهق الذي يمكن لنا أن نتهمه بعدم فهم ما بين يديه من كتب قيمة أو صعبة، فإنه من الطبيعي أن يتأثر بالكلمات حتى وإن لم يفهمها أو يستوعبها تماما. من المنطقي أن يتحرك عقله بحثا عن المعاني، وتحريا للمقاصد، خاصة وإن كان عنيدا بطبعه لا يقبل التراجع، بل إصراره هو نوع من تأكيده لذاته

على وجوده الشخصي وحريته التي يكافح من أجل الحصول عليها، ولو عن طريق مغامرة بريئة بقراءة كتب قد تناسب أو لا تناسب عمره.

استمر تنقيبها العشوائي في المكتبة لمدة عام تقريبا، تبينت خلاله بعض الكلمات وتوسع معجم مفرداتها في ضوء ما تقرأ، واستطاعت حفظ بعض أسماء الكتاب الذين بدأت تفهم كلماتهم بجهد واختيار شخصي.

ولسنا ندعي هنا بأنها قد أصبحت قارئة متبحرة وما إلى ذلك، لكن الذي حدث هو تفتّح وعي كامن موازٍ يفتح الآفاق أو على الأقل يعد بذلك.

الذي حدث هو تكاثر في علامات الاستفهام لديها، وفي دوافع إيجاد الإجابات، وأمل جميل بالعثور على كل تلك التفسيرات عبر الكتب، ولهذا فقد بدأت العناوين في كثير من الأحيان تشكل مخرجا ما لها وتفريغا لطاقتها وتمردها.

في يوم ما لم تكن فيه والدتها في المنزل، وكان والدها يغط كعادته في مكتبه تسللت إلى المكتبة وأغلقت الباب، ثم تركت قدميها لتتمشى في أنحاء الغرفة بمحاذاة الرفوف.

تنظر نحو الكتب وتمثل أنها أميرة ستختار فارسها، وفارسها سيكون كتابا من بين جموع غفيرة من الكتب.. كلها تتنافس كي تصل إليها وتحظى باهتمامها الفريد.

قالت بصوت مسموع:

- من الذي سأختاره اليوم؟!

تأملت الرفوف التي في متناول يدها فشعرت بأن الكتب تتهافت عليها.

صارت تنقل أقدامها بتباطؤ ودلال، تمد يدها نحو أحد الكتب فتتخيل بأنه يبتسم لأنها ستختاره، فتغير رأيها في اللحظة الأخيرة وتترك الكتاب ليغرق في حزنه لأنها تركته.

لكنها فجأة تنظر نحو العالم البعيد، ترفع رأسها نحو الرفوف العليا التي هيئ لها أن الكتب فيها لا تهتم لأمرها وطرق اختيارها..

ساءها ذلك، فتركت كل الرفوف التي بجانبها وتطايرت رغبتها نحو الأعلى.

- إن كنت أريد أحدكم.. فسأجلبه.

قالتها بصوت مسموع مستثارة بفكرة صف الفرسان الأعلى الذي لا يبدي اهتماما بأميرته.

لم تكن تستطيع من مكانها قراءة معظم العناوين في تلك الرفوف، لكنها توقفت فجأة تحت كتاب ما وتأملته من مكانها.

غلاف عاجي اللون يحمل زخرفة نباتية جميلة بلون أحمر داكن.

لم يكن بإمكانها قراءة العنوان في الرف ما قبل الأخير من المكتبة.

كان لها أن تدعه وتلتفت إلى الأعداد الهائلة التي في متناول يدها، لكن غلافه وأزهاره الحمراء كانت أشد

إغراء من تركها وتجاهلها، بالإضافة إلى رغبتها الأصيلة بالتمرد على الصعب أو الممنوع.

لم تكلف نفسها عناء جلب سلم المكتبة الصغير من الشرفة الملحقة بالغرفة، بل جذبت مقعد المكتب سريعا وصعدت.

عندما صار مستوى نظرها محاذيا للمجموعة الجديدة من الرفوف ابتسمت وشعرت بأنها على وشك أن تغزو عالما جديدا وتبدأ باكتشافه.

لم تكن على كل حال قد اكتشفت ولا حتى جزءا بسيطا من كتب الرفوف السفلى، ولكننا لن ننسى بأننا نتكلم هنا عن فتاة لم تتجاوز السادسة عشرة.. قد تكمن المغامرة بالنسبة إليها في تخطي الخطوط الحمراء التي لا تطالها على المستوى الحسي، لا بالاكتشاف الحقيقي لمعاني الكتب وفحوى الكلمات.

استطاعت أخيرا قراءة عنوان الكتاب المزركش دون أن تلمسه:

«تجاوز البعيد والقريب في وصف وصال الحبيب»

كررت قراءة الاسم فشعرت برخاوة تصيب أوصالها ونعومة في اللفظ تجعلها تستمتع بتكراره من جديد.

تخيلته مقطعا من أغنية جميلة، فأطلقت صوتها من فوق المقعد وغنت الجملة بصوت مغرّد يشبه الأصوات الأوبرالية.

رفعت نظرها عن العنوان كي تقرأ اسم المؤلف. لم

تستطع قراءة الاسم كاملا، فقد كان مكتوبا بخط عربي مزخرف من كل أطرافه، لكنها استطاعت قراءة القسم الأول من اسمه الطويل وكان: **شمس الواصلين**.

أضحكها الاسم.. وأدهشها.

- شمس الواصلين! ما هذا الاسم!

قالت ذلك وحاولت الارتقاء والتطاول كي تستطيع التقاط الكتاب، لكنه كان أعلى من أن تقبض عليه تماما بأصابعها رغم وقوفها على المقعد.

رفعت عقبيها ومطت مفاصلها حتى استطاعت إمساكه بطرفي إصبعيها، لكنها وبمجرد سحبه قليلا من بين بقية الكتب اختل توازنها وتخلخل المقعد من تحت رجليها.

لم تعِ في تلك اللحظة المفاجئة إلا ابتعاد الكتاب عنها من جديد، أو ابتعادها هي فعليا عن الكتاب لدى سقوطها نحو الخلف واستقرارها على الأرض.

ولعلها لا تزال تستحضر تلك اللحظة تحديدا كلما تذكرت قصة الكتاب وما جرى معها بعد ذلك.

لحظة ابتعاد الكتاب.. تلك اللقطة التي تصورتها دوما وكأنها تراها بالتصوير البطيء:

يبتعد الكتاب.. يبتعد أكثر.. يعود فيستقر في مكانه بين الكتب.. يتلاشى حتى يختفي.. ثم يختفي معه كل شيء.. كضوء ينطفئ بشكل تدريجي وهادئ.

لم يكن السقوط عنيفا، بل يبدو أن الجسد الرقيق قد

ارتطم برخاوة ونعومة كارتطام قطة لينة مرنة الأطراف والجسد، تعرف تماما كيف تفترش الأرض بطريقة فطرية خلال السقوط المفاجئ.

لم يتأثر نتيجة لذلك أي من عظام الظهر والمفاصل، لكن الضربة الأعنف كانت من حظ مؤخرة الرأس التي سببت بارتطامها تلاشي الرؤية وغياب الوعي.

عندما فتحت عينيها من جديد لم تستطع الحركة، بل شعرت بألم شديد في كل أنحاء جسدها وخدر يجعلها تعجز حتى عن التقاط نفسها بشكل جيد.

حاولت النهوض لكنها أدركت عدم قدرتها على ذلك.

نظرت بعينيها نحو الأعلى لتجد الكتاب في مرمى نظرها. ولعل شدة الضربة، التي تلقتها على مؤخرة الرأس جعلتها في هذه اللحظة ترى زخارف الكتاب النباتية تتحرك وكأن كل فرع منها يمتد فيتفرع ويتشابك ليحاول الوصول إليها.

شعرت بأن الزخارف تتوالد بطريقة ما في الفراغ الفاصل بين الرف العالي والأرض، فتتمدد وتكاد تلمسها بنهايات فروعها.

فتحت عينيها بشكل جيد لتجد الصورة أكثر ارتجاجا، ولتتخيل أن الكتاب نفسه يتضخم أو أن الزخارف المجسمة ستلتف حول عنقها وتبتلعها.

كانت هلوسات مخيفة حقا.

حاولت النهوض للمرة الأخيرة.. شدت كل عضلاتها

المتيبسة وانتفضت لكي تنهض، وعندما فشلت هذه المرة انتابتها موجة عارمة من الخوف جعلتها تستجمع كل طاقتها، وتستنفر كل حبالها الصوتية وتصرخ ببكاء هستيري طالبة النجدة.

اخترق الصوت جدار غرفة الوالد الذي تجمد للحظات ثم هرع مذعورا كي يلاحق مصدر الصوت المستغيث.

اهتدى إلى المكتبة فوجد ابنته مستلقية على ظهرها تتلوى وتبكي وقد انتابتها حالة غريبة تبدو فيها غير واعية لما يجري من حولها.

تصرخ من الألم وتتفوه بكلمات غير مفهومة وبجانبها المقعد المقلوب الذي ينبئ بما حدث.

-١٢-

وصال

تسمع صوتا يقترب من غرفتها.

يحاول أحد ما فتح الباب عدة مرات بعنف لكنه يفاجأ بأنه موصد، وهنا تسمع صوت والدتها الغاضبة تنقر نقرا متواصلا وتأمرها بفتح الباب.

تبقى في مكانها مقابل مرآتها.

عميقا في داخلها كانت تستمتع حين تضع والدتها في مأزق كهذا. فتتلاعب بأعصابها في الوقت الذي تكون متأكدة فيه بأنها لن ينالها شيء من العقاب.

لم تتكلم إلا بعد أن شعرت بأن والدتها ستهوي فوق الباب فتحطمه وعند ذلك فقط نطقت من خلف الباب دون أن تفتحه:

- بقي لي القليل فقط.. امنحيني بعض الوقت.

- أيتها الغبية يجب أن تكوني بيننا الآن.. لقد حان الوقت.

- لازلت أجهز نفسي، فقط امنحيني القليل.

- افتحي الباب. لمَ تكلمينني هكذا؟! لا تزيدي من غضبي أكثر.

- لم أرتدِ ملابسي بشكل كامل بعد، أحتاج بعض الوقت.

- لماذا أخرجتِ أختيكِ عندما كانتا معكِ؟! تحتاجين مساعدة من إحداهما على الأقل. سأرسل أختكِ إليكِ.

- لا.. لا أحتاج أحدا. سأنتهي خلال عشرين دقيقة.

- بسرعة.. لا ترغميني أن أعود مرة أخرى.

ذهبت الأم، وعادت هي إلى مقعدها. كانت في حقيقة الأمر قد توقفت عن إكمال تجهيزات ظهورها في الوقت الذي صرفت فيه أختيها خارج غرفتها.

أقنعتهما بأنها تحتاج أن تكون مع نفسها قليلا وأنها ستجهز نفسها سريعا بلا تكلف، فخرجت الاثنتان تحت وطأة الإلحاح، وبقيت هي تشاهد شعرها الذي تمّ لفّه بطريقة دائرية وعُقِصَ في نهاياته لتصبح مقدمته كعرف الديك ولتشبه نهاياته نباتات لولبية غريبة.

كان هذا هو الشكل الذي اقترحته الوالدة لها ونفذته على الفور السيدة المختصة بتصفيف الشعر قبل المولد بساعتين.

لم تكن لتجادل في هذا الموضوع، على الرغم من كرهها الشديد لتلك التصفيفة تحديدا.

لم تكن تملك الرغبة بالاعتراض، بل شعرت بأنها تنتقم من كل الدنيا عندما تترك رأسها ليأخذ هذا الشكل البغيض.

تنظر في وجهها، فتكرهه تحت ثقل كآبة شعرها.

ترفع يدها لتمسح فوق الشعر الموارب فتبدأ بقمة الرأس ثم تنزل نحو مؤخرة الرأس والعنق، فتلمس المنطقة التي ارتطمت ذات يوم بأرض المكتبة.

تعود بذاكرتها لتستعيد اليوم الذي قضته في

المستشفى مع والدها..

لم تكن تعاني من أية كدمات أو تورمات، ولم يسفر الفحص السريري عن أي نزيف خارجي أو داخلي واضح، خاصة بعد المراقبة المستمرة التي أجريت عليها خلال الأربعة والعشرين ساعة اللاحقة.

لكنها على الرغم من ذلك لم تستطع العودة إلى حالتها الطبيعية خلال الأيام التي تلت الحادثة.

كانت تبدو منهكة بشكل دائم، لا تكاد تستطيع مغادرة الفراش، وكأن ضعفا عاما قد أصاب وجهها ومفاصلها وأطرافها فجعلها لا تستطيع القيام بأي من النشاطات التي كانت تقوم بها كفتاة من أكثر فتيات العائلة نشاطا وحركة.

وهذا ما سبب قلقا عند والديها، لكن الطبيب أكد لهما فيما بعد أن الوضع طبيعي وأن حالة الضعف هذه التي انتابتها ما هي إلا انعكاس عصبي لابد منه، يحمل كل أعراض الصدمة العصبية التي يبديها المريض بعد الحوادث مباشرة، وقد تستمر لعدة أيام، ولابد هنا من دعم المريض وملاطفته والابتعاد عن إزعاجه.

وهذا ما جعل والدتها تغفر لها اقتحامها لغرفة المكتبة وتصبح أكثر تسامحا مما تكون عادة في مثل هذه المواقف.

بعد مرور عدة أيام بدأت تسترد عافيتها ونشاطها المعتاد، وأخذت حياتها تعود تدريجيا إلى ما كانت عليه سابقا، وربما لولا الحلم الغريب الذي رأته في الليلة

العاشرة بعد الحادثة لكانت قد سارت الأمور بشكل اعتيادي ولما وصلت اليوم إلى ليلة المولد.

لم يكن حلما عاديا؛ بستان رحب يفتح لها أبوابه.. فتدخل..

بمجرد دخولها تبدأ نباتات الزينة التي تملأ البستان بالتراقص.

تنحني لها وتتفرع، ثم تشكل عربة أو ربما قاربا، يحملها ويبدأ بنقلها من مكان إلى آخر.

كان البستان كبيرا لا يكاد يظهر له أول من آخر. نباتاته حمراء وصفراء وبرتقالية.. لكنها ليست خضراء.

كانت تشعر بألفة غريبة مع المكان وكأنها زارته من قبل، أو كأنه يذكرها بأمر ما لا تستطيع استحضاره.

حملها قارب الأغصان الملونة ثم لف بها في أنحاء البستان. نقلها من الأفق إلى الأفق دون أن ينتهي البستان.

ثم دخل بها حديقة جانبية صغيرة، فصار القارب نفسه مقعدا كبيرا واسعا ومريحا.

كانت تشعر بسعادة غامرة وخوف في الوقت ذاته. وتفكر ما الذي ستخبر به أسرتها عندما تعود من بستانها هذا؟!

فجأة يظهر أمامها رجل.. في منتصف العمر.. أربعين.. أو ربما أكثر.. لكنه يبدو رغم ذلك يافعا بجسد طويل وصدر واسع.

كان يرتدي حلة عاجية اللون، لم تستطع أن تدرك تفاصيلها. عيناه واسعتان بلون الرماد.. وشعره طويل بلون الشهب.

له هيبة جعلتها ترتجف كلما اقترب منها أكثر.

وصل إليها.. مد يده ووضعها فوق كتفها فشعرت بحرارة في كفه لا توصف. حرارة جعلت ارتجافها يختفي واضطرابها يتلاشى.

سألته:

- من أنت؟

أجاب:

- أنتِ وصال..

- لكن اسمي ليس وصالا.. اسمي..

قاطعها وقال مبتسما:

- اسمكِ وصال.. من الآن فصاعدا اسمكِ وصال..

سكتت ولم تستطع سؤاله عن اسمه مرة أخرى.

كان ينظر في عينيها فتشعر بحرارة النظرة ودفئها.

فاجأها بسؤال:

- لم تركتِني؟

- أنا؟ أنا لا أعرفك..

- بلى..

- من أنت؟

- مازلتُ أنتظركِ..

- من أنت؟!

سألته بلهفة لكنها لم تسمع صوته مرة أخرى بل ابتعد عنها وغلفته الأغصان الحمراء، ثم استيقظت.

استعادت الحلم مرات ومرات، فاكتشفت تطابق الأغصان شكلا ولونا مع أغصان الكتاب، وعرفت أن ما رأته كان استدعاء الكتاب لها بشكل شخصي كي تقرأه.

ربما كان ما رأته لا يعبر فعليا إلا عن رغبتها الكامنة في قراءة الكتاب، بعد أن تخيلت كل الكتب فرسانا بانتظار إشارتها، تلك الرغبة الخفية التي اشتعلت في لاوعيها بمجرد أن أفلت الكتاب من يدها واستعصى عليها، ولم تكن الأيام العشرة كفيلة بإزالة تلك الرغبة رغم ما عاناه الجسد من ضعف ومرض.

في اليوم التالي مباشرة استعادت نشاطها وأعادت الكرة، فدخلت المكتبة وجلبت السلم الصغير على الفور، ثم صعدت بتأنٍ وصارت مقابل الكتاب.

شعرت برعشة خفيفة تسري في بدنها بمجرد أن امتدت يدها لتسحبه. رهبة جعلتها تلمسه قبل سحبه وتسترجع الحلم الذي رأته بالأمس بأكمله.

الأغصان والفروع الملتفة التي تزين جلدته الخارجية كانت مطابقة لأغصان الحديقة.

لن نستطيع الحكم هنا على صدق ما رأت من تطابق.. إذ لم نستطع أصلا الحكم على مكنون الحلم وهل هو شيء يستدعي النظر فيه فعلا، أم أنه مجرد رد فعل عادي لتهالك جسد مراهقة عانت من ضربة فوق الرأس

وإعياء لأيام متتالية لم يفتر خلالها لاوعيها عن تزيين الكتاب المستعصي وترغيبها باستعادته من جديد.

قد يبدأ عالم الحلم من الوحي والرؤى ورفعة الروح وتساميها، وقد يمر بمتطلبات النفس ورغباتها الكامنة والظاهرة، الحسنة والسيئة، وقد ينتهي بعضوية الجسد وحاجاته الظاهرة والمكبوتة كسوء التغذية وعسر الهضم والكبت المتواصل وأضغاث الأحلام..

سحبته أخيرا، ثم قرأت اسم المؤلف كاملا، وكان اسما طويلا كما هي حال أسماء شيوخ العصور الماضية.

سلسلة طويلة من الأبناء والآباء يبدأ بلقب **شمس الواصلين**..

شمس الواصلين أبا الفتح محمد بن علي المدني بن فلان بن فلان بن فلان.. وسلسلة أطول من الألقاب والتشريفات.. كان واحدا منها؛ **المريد..**

كررت اسم مريد بصوت مسموع فأعجبها معنى الاسم ووقعه على مسمعها، وشعرت بأنها تسمعه للمرة الأولى إذ لم تعرف شخصا بهذا الاسم من قبل.

جلست في مخبئها المعتاد تحت المكتب العتيق الضخم فوق السجادة الوثيرة..

فتحت الكتاب وبدأت بقراءة نهمة متواصلة.

-١٣-

مريد

لم يكن الكتاب سهلا على الفهم، خاصة بالنسبة لفتاة في مثل عمرها.

لكنها كانت تستسيغ الكلمات حتى في ظل عدم فهمها، وتستطيع تلمس معاني الوصل والمحبة التي يصفها الكاتب حتى لو استعصت الكلمات في لفظها وصعوبتها.

لربما كان الكتاب بشكل عام عاديا. إذ لم يكن معروفا بأنه كتاب لامع ولا مصنف جامع ولا مرجع ثقيل يُستأنَس به لدى أهل العلم والمعرفة.

لكن ما يقع موقع الاعتياد عند إنسان قد يقع موقع التقديس عند آخر، وذلك حسب حاجته ومرحلته العمرية وحسب طريقة استيعابه وتلقيه.

ففي الوقت الذي كان هذا الكتاب يعد كتابا عاديا يلقي الضوء على آداب محبة العبد لربه وطرق الترقية وصقل النفس وترويضها وبعض الرياضات الروحية، كان قد بدأ يشكل لها دربا آخر أكثر اكتمالا وأبهى زينة مما كان لديها.

لقد فتح الكتاب عالما بهيا من المحبة كانت في أشد الحاجة إليه، عالما مختلفا عما اعتادت العيش فيه، فالمحبة الهادئة وتربية النفس هي الأصل في عالم الكاتب الذي وضع طرقا وأهدافا لضبط النفس وشحنها وتوجيهها، ليصبح الهدف الأسمى أمام الروح هو

الوصول إلى محبة الخالق عز وجل.

كان يتكلم عن الخطأ على أنه مغفور، وعن العقوبة على أنها مجبورة في حال العودة والتوبة النصوح.

لم تكن العقوبة حاضرة بشكل كبير في كلماته، ولكن الترغيب هو مفتاح فكره للوصول إلى مرتبة المحبة والصحبة.

ولعل هذا ما فهمته وهذا ما كانت فعليا تحتاج إليه، أن تجد البديل ولو لمرة في حياتها عما نشأت عليه.

بديل العقوبة، وبديل النار، وبديل الخطأ الذي لا يُغتفر، وبديل الشعور الدائم بالذنوب المتكررة.

كانت تقرأ ما تحتاجه نفسها، ولعلها كانت في بعض الأحيان لا تلقي بالًا أو ربما تتغافل عن بعض المواطن التي يتم التذكير فيها بالعقوبات أو التي تأخذ الترهيب أساسا لإيصال الفكرة.

أنهت الكتاب خلال عدة أيام. ثم بدأ شعور غريب ينتابها بأنها مختلفة، أو أنها قد اكتشفت دربا مختلفا.. بل الدرب الصحيح.

كثيرا ما شعرت من قبل بأنها مختلفة عن بقية أفراد أسرتها، لكنه كان اختلافا سلبيا أو شذوذا يجعلها تشعر بالذنب والخزي والتقصير دائما. أما بعد قراءتها المتأنية لكلمات الكتاب المزخرف فقد بدأ شعور آخر يتسلل إلى فكرها وقلبها، شعور بأن ذنبها قد يغتفر وأن الله هو المسؤول الوحيد عن المغفرة، ولا أحد يمكنه التكهن بمغفرته أو عدمها إلا صاحب الذنب نفسه.

قرأت في الكتاب بحثا كاملا عن المغفرة والتوبة فتح لها آفاقا لا تنتهي من الأمل والاسترخاء، وبعث فيها يقينا بأن اختلافها رحمة وتفوقا لا ذنبا وتخلفا.

أنهت الكتاب وتملكتها طاقة صرفة شعرت فيها بإمكانية الإصلاح، أو إن أردنا الدقة والوصف الصحيح.. فشعورها حقيقة هو الرغبة الملحة بالتصالح مع نفسها لا إصلاحها.

لكنها لم تكن تعي ذلك، إذ لم تكن قد سمعت عن مصطلح كهذا، ولهذا فقد ظنت بأن نفسها بحاجة لإصلاح من نوع خاص، وأنها قد وجدت السبيل إلى ذلك.

ولم تكن أولى خطوات ذلك إلا البحث عن جميع مؤلفات «مريد» كما أحبت أن تسميه بعد أن نبذت اسم شمس الواصلين وجميع الألقاب والأسماء الأخرى.

لقد شعرت بطريقة ما أن الشخص الذي رأته في حلمها هو مؤلف الكتاب.. هو مريد بعينه، وانتابها شعور منذ لقائها معه في حلمها بأنه فارسها المنتظر: مريد.. صاحب العيون الرمادية.

أما هي؛ فوصال.. وصال المختلفة، وصال ذات التمرد، وصال ذات الذنوب التي تذوب.. وصال السماء لقلوب السعداء..

كل هذه الألقاب وأخرى غيرها أطلقتها على نفسها محاولة التكني والتشبه بصاحب الكتاب، أو بصديق حلمها السري؛ مريد.

-١٤-

تهديد

يعلو نقر الدفوف حتى يصبح في أوجه، وتبدأ جولة أخرى من عروض الرقص التي تقوم بها الفتيات اليافعات بأوامر مباشرة أو غير مباشرة من أمهاتهن بهدف إبراز المفاتن والحصول على عروض الخطبة.

لا تزال الصحون تدور بين الحاضرات، بعضها قد فرغ تماما من محتواه، والبعض الآخر مازال يحتوي على بعض اللقيمات التي تبقيها السيدات بنيّة مسبقة كي لا تظن صاحبة الدعوة أن ما قدمته كان فاخرا للدرجة، التي دفعت الحاضرات لمسح الصحون عن بكرة أبيها.

أما صاحبة الدعوة ذاتها فلم تكن في هذا الوقت تلقي بالًا للصحون وما بقي فيها، بل كانت تدور بعصبية بين الجميع، تكلم هذه وتبتسم لتلك، تجامل هذه وتسلم على تلك، والتوتر قد بدأ يظهر فوق تغضنات جبينها، فابنتها مازالت مستعصية في غرفتها حتى الآن.

تتجه نحو ابنتيها، تسحبهما خارج دائرة النساء وتهمس بكلمات من نار:

- لم تظهر حتى الآن. ينبغي لها أن تعرف أنها إن أبدت هذه المرة تحديدا أية ممانعة أو تمرد فسأجعلها عبرة لمن اعتبر من حاضرات هذا المولد، ولأرغمنها على الخروج علنا أمام الجميع.

- أرجوكِ أمي لا يوجد داعٍ لذلك. ستخرج.. إن هي إلا

دقائق.

- إنها تحاول استفزازي وإحراجي.. أنا أعرفها!

- لا يا أمي. دعينا لا نفقد توازننا هنا.. لقد حدث الأمر دون إرادتها. لنترك لها وقتها قليلا، فهذا أبسط ما تستحقه.

- نعم. طبعا كان لابد أن يحدث الأمر غصبا عنها بعد المصائب التي قامت بها. لا أريد لها أن تتأخر في زواجها دقيقة أخرى. أخاف أن تسوء الأمور إن بقيت هكذا بلا ضوابط.

- لكن تعجيل زواجها كان عقوبة لها.. لا مكرمة.

- نعم. وسيكون عليها عقوبة أكثر من ذلك إن هي تأخرت أكثر وماطلت.

وهنا نطقت الابنة الكبرى المطلقة لأول مرة:

- زواج بالإكراه لن يدوم يا أمي. بل سينتهي بها الأمر مثلي.

- وهل تزوجتِ أنتِ بالإكراه أيتها الحمقاء؟

- لا.. لكنني كنت أصغر من أن أعي الصحيح.

- وهل نناقش الآن مشكلتكِ أنتِ أم مشكلة تلك العاقة التي تستعصي في غرفتها.. لمَ لمْ تبقيا معها؟ لم خرجتما؟!

- أمي. إنها تريد أن تختلي بنفسها قليلا. بضع دقائق لن تضر. فلتنتظر كل تلك النسوة. ستخرج لهنّ عاجلا أم آجلا. ما الذي سيؤخرها أكثر. دقائق وستخرج. أنا

أعرف أختي جيدا. تحتاج أن تعيد التفكير كي تقتنع.

- تقتنع بماذا! إنه زوجها. ماذا فعلنا سوى تعجيل الموعد؟

- لكنك تعلمين جديا بأنها..

قاطعتها الأم بحدة:

- لا أعلم ولا أريد أن أعلم. سأنتظرها قليلا وإن لم تأتِ يتحتم عليكما أن تجلباها غصبا وإلا سأجرها جرا من شعرها وأشهد الله على قولي هذا.

تركتهما وعادت إلى معمعة النساء وبقيت الأختان وقد أصابهما التهديد بتوتر فوق توترهما.

- ماذا سنفعل؟

سألت الكبرى.

- سننتظرها قليلا ثم نذهب إليها. ستخرج بهدوء. لن تمانع أنا أعرفها. لقد أحبت خطيبها منذ أن رأته أول مرة. إن شاء الله لن يحدث مكروه. أشعر أن كل شيء سيسير على ما يرام. لا تقلقي.

- أنذهب الآن؟

- لا لا.. انظري.. بعض النسوة تنظر إلينا. لندخل ولنضحك قليلا ونضفي بعضا من المرح ثم ستخرجين أنت وتعودين بها.

- وإن لم ترضَ؟

- سترضى، وإن لم تفعل فسأذهب أنا وسأعود بها. لن أورط أمي في موقف كهذا.

-١٥-

تفتُّح

في مكتبة العائلة توجد عدة كتب ومصنفات لمن سندعوه «مريدا» كما أحبت صاحبة المولد أن تسميه.

كتب متنوعة جمعتها تلك المكتبة لهذا المؤلف الفقيه. وكما الأمر في كتابه السابق الذي قرأته الفتاة، فلم تكن كتبه ذات شأن ضخم جدا في عالم التأليف الفقهي والصوفي، لكنها كانت تمتلك إضاءات معينة بإمكان من يتلمسها أن يستضيء بها ويبني بعض الأحكام الصحيحة وفقا للقواعد التي تطرحها وتؤكد عليها.

صارت هي تتتبع كتبه سرا. لم يكن لأحد أن يحزر أنها فتشت مكتبة والديها الهائلة كتابا كتابا فلعلها تحصي كل ما كتبه مريدها هذا.

قرأت كتابه الثاني وهامت أيضا في عوالمه الرقيقة. تواصلت بطريقة ما مع كلمات الكتاب، للدرجة التي شكلت فيها صورة لمريد في خيالها وجعلته يروي لها كتابه بصوته.

فكانت تتخيل ملامحه وصوته خلال القراءة مطابقا لملامح وصوت الشخص الذي زارها في منامها، والذي كانت على يقين لا يخالطه شك بأنه هو.

أنهت الكتاب الثاني الذي كان صغيرا نسبيا، وعندما بدأت بمؤلفه الثالث شعرت برغبة هائلة في داخلها أن تحذو حذو هذا الإنسان. كانت تريد أن تصبح مثله.

أطلقت العنان لخيالها كما تفعل عادة. فوجدت نفسها كاتبة ومفكرة. واكتشفت أن لديها ما لا ينتهي من الأفكار، وأن أفكارها تستحق النشر، ووعدت نفسها بأنها سوف تسعى لنشر فكرها في حياتها عن طريق التأليف. وستسمي نفسها اسما آخر. ستسمي نفسها «وصالًا»، وستضع هذا الاسم فوق كل مصنف تؤلفه.

أعجبتها الفكرة لدرجة أنها قررت أن تبدأ مشوار تأليفها منذ يومها هذا. فاشترت لنفسها دفترا مختلفا عن دفاترها المدرسية. دفترا بلا هوامش. كانت تكره الهوامش الإجبارية التي يفترض أن تتقيد بها وتكتب وفقا لوجودها.

اشترت دفترا غربي الصنع، إلا أنه كان وعلى الرغم من ذلك يحمل من النقوش والزهور ما يشبه في شرقيته نقوش وأغصان كتاب مريد الأول الذي قرأته.

وضعت الدفتر أمامها وكتبت فوق الصفحة الأولى بلا نية ولا تفكير:

إلى مريد..

ثم أمسكت الدفتر وقلبت صفحاته البيضاء بيديها، وفكرت أن كم من الوقت سيلزم كي تنهي ذلك الدفتر الضخم، ويكون هو مؤلفها الأول.

ستكون كمريد.. كاتبة مختلفة، وستنير الدروب المظلمة.

لا يمكن لنا أن نلوم فتاة مثلها مازالت تخرج من شرنقتها _كطفلة ومراهقة_ على تضخيم مستوى

أحلامها وإطلاقها بهذا الشكل. فكم منا قد حلم عندما كان في عمرها أن يحكم دولة بأكملها، وكم منا قد شعر بأنه نجم خفي سيسطع عاجلا أم آجلا، وكم منا قد عرف بأنه مختلف وأنه المعني بغرس دعائم الاختلاف والتغيير، وكم منا قد أعلن ثورته الداخلية على نفسه وعائلته عندما كان على مشارف عالم الرشد دون أن تطأ قدماه أرض الرشد بعد..

نعم.. لقد تطورت أحلامها في هذه المرحلة وصارت ترى نفسها صاحبة الفكر الجديد في العائلة، ومرشدة الطريق بالنسبة إليهم جميعا، وصارت تتخيل بأن والدتها ستكون آخر المؤمنات بها وبطريقتها الجديدة ودعوتها التنويرية لفهم الحقائق، وستقتنع والدتها أخيرا، وستقر بأخطائها الشخصية التي ارتكبتها طيلة سنوات حياتها، وستعترف بأنها لولا ابنتها الصغيرة ومخلصتها لما عرفت الطريق الحقيقي ولما فهمت أخطاءها، وستعلن توبتها الفكرية.

وهنا.. ستعانق والدتها، وستغفر لها كل زلاتها السابقة، وستنتهي الأمور بسعادة وهناء.

حلم طفولي بسيط من أحلام ما بعد الطفولة.. سمحت لنفسها بتبنيه والشروع بتحقيقه عن طريق كتابها أو دفترها السميك خالي الهوامش ذي النقوش الحمراء.

لكنها وما أن بدأت بصياغة نظرياتها، حتى وجدت أن لا شيء تستطيع كتابته على الإطلاق.

فوجئت بأنها لا تملك أي نظرية واضحة المعالم في عقلها.

فأغلقت الدفتر، وصارت كل يوم تحاول فتكتب بضعة سطور ثم تمزق الورقة التي كتبت عليها بعد إعادة قراءتها وتكتشف بأنها أتفه ما حرر على وجه الأرض.

عدة أيام مرت ما بين سطور متفرقة وتمزيق حتى أصابها الإحباط وبدأ يتسلل إلى فكرها شعور بأنها فتاة ساذجة غبية تحلم بالمستحيل.

إلى أن جاءت ليلة متميزة أعادت لها اشتعال نفسها وشحذت طاقتها المتمردة من جديد..

في تلك الليلة وبعد نوم الجميع غطت رأسها وطمرت نفسها كعادتها تحت لحافها وأشعلت مصباحا صغيرا جدا يعمل على البطارية اختلسته من مكتب أبيها، كانت تحب أن تفعل ذلك بعد أن يغرق المنزل بنومه فتبدأ هي باكتشاف كهفها تحت اللحاف من خلال الضوء البسيط.

أشعلت المصباح في تلك الليلة وبدأت تحلم.

شعرث فجأة بشوق لرؤية مريد.

تساءلث؛ لم لم يعد يزورني؟! لم رأيته مرة واحدة فقط؟! كم أنا بحاجة إلى أن أكلمه.. أن أخبره عن حياتي وما يحدث فيها.

وهنا أخرجت دفترها من تحت مخدتها، ووجهت المصباح الصغير فأنارت الصفحات، ثم بدأت تكتب رسالة لمريد ببساطة واسترسال، دون حتى أن تعي ما

تكتب، وكأنها تكتب لصديق قديم لا حاجة للتكلف في صياغة الكلمات الموجهة إليه.

-١٦-

الكبرى

تقف خلف أختها بشكل دائم تقريبا، لا تتحدث كثيرا مع المدعوات لكنها تبتسم وتهز رأسها بالموافقة وتترك نسج الأحاديث لغيرها.

تترك صالونات المولد كل بضع دقائق إما لتذهب إلى المطبخ فتتناول شيئا ما من المأكولات المتنوعة أو لتتصل بالمربية التي تركتها مع طفليها الشقيين.

لم تكن الكبرى راضية فعلا عما يحدث.. بل كانت ترى أن سيناريو القصة التي تعيشها أختها مشابه بطريقة أو بأخرى للسيناريو الذي عاشته هي مع زوجها السابق على اختلاف المقدمات.

حين تم تقديم خطيبها إليها لم تبد الفروقات الهائلة التي ستفصل بينها وبينه واضحة مكشوفة. كانت صغيرة مستسلمة لا تعرف كيف تقرر ما هو الأصلح لها، وحتى إن أدركت لاحقا ما هو الأصلح لم تكن لتجرؤ على التصريح به.

كانت المدة التي قضتها مع زوجها تحمل من التناقضات واليوميات الممضة والتعب والإرهاق ما جعلها تضمر في صدرها لوما خفيا للشكل والطريقة التي تتم فيها تسيير تلك الأمور في عائلتها.

حتى ولديها اللذين ينهلان من معين والدتها التربوي قد بدآ يفرضان إرادتهما عليها رغم حداثة سنيهما،

وصارت تجد صعوبة وإرهاقا في تربيتهما والسيطرة عليهما خاصة في ظل غياب الأب القسري.

لم تكن شخصيتها المهمشة معدة لكل هذا الضغط.. ولهذا لم يكن لديها طريقة لإتمام حياتها إلا الاستسلام لليوميات بطريقة مخدرة.

وهذا ما جعل تأثيرها في حياة أختها الصغيرة شبه معدوم، فلم تكن فعليا قادرة على تغيير أصغر تناقضات حياتها فكيف إذن ستستطيع التدخل والتأثير في حياة غيرها، ما بالنا إن كان هذا «الغير» أقوى وأكثر قدرة منها هي شخصيا على اتخاذ قراراته.

لقد شهدت تقلبات أختها مع خطيبها بعد فترة من وجوده، وشعرت بكثير من تلك العذابات الصغيرة التي كانت تعيشها الفتاة، لكنها لم تستطع كأخت كبرى أن تقوم بدورها الحقيقي كمدافع وموجه لحياة أختها، بل اكتفت بالمشاهدة البعيدة مع كل ما في نفسها من تمنٍ لتغيير مسار الأمور.

ربما لم تكن صاحبة المولد لتعتقد في داخلها أن أختها الصامتة تلك تحمل في داخلها كل هذا التعاطف لحالها.. ولو أنها شعرت للحظة أن هذا ما ينطوي عليه صمت أختها لركضت على الفور وأودعت كل حزنها وغضبها وربما العديد من أسرارها في أحضان أختها.

فهي تبحث ـأولا وأخيراـ عن أم بديلة تمنحها ذلك الدفء، الذي لم تستطع أن تستمده من أمها مباشرة.

عميقا في داخلها كانت الكبرى تتمنى لو تغير صاحبة

المولد السيناريو المفروض عليها، ربما كانت تبحث عن معادلة جديدة تجد فيها خلاصها أو تفريغا خفيا لكبتها الطويل، ولكن عن طريق غيرها بما لا يسبب لها أي مواجهة محتملة مع والدتها أو مع حماس أختها الوسطى.

ولعلنا نستطيع أن نقول بأن الشخص الوحيد، الذي لم يكن يشعر بالفرح أو على الأقل بالتفاعل خلال المولد عدا صاحبة المولد الأساسية هو أختها الكبرى حتما.

ولهذا كان مبررا لها أن تسعى خلف الوسطى ـالتي تنهض بين الحين والآخر لتتابع خدمة أو لتعجل صنفا من المطبخ أو غيرهـ من أجل أن تفتح معها الموضوع حين تختلي في حمام أو في أحد الممرات وتعرب ـعلى استحياءـ عن عدم موافقتها.

ولم يكن رأيها على أية حال ليقدم أو يؤخر في سير الأمور، خاصة أنها قد تأخرت جدا في هذا.. لكنها ربما وبوحي من شفقة أو تعاطف أو تأنيب ضمير أحبت على الأقل أن تحاول.

ولهذا هرعت مسرعة عندما وجدت أختها تدخل الحمام فانسلت وراءها وهمست بصوت مرتجف:

- لا أعتقد أن الأمور ستسير على ما يرام.

- ما الذي جرى لكِ أنتِ الأخرى؟! ولمَ لن تسير على ما يرام؟ الأمور جيدة والمولد مستمر.

- أختك مغلوبة على أمرها، وأنتِ تعرفينها.. لن تستطيع تقبل هذا الضغط المتواصل.

- لا تبالغي في الأمر، لقد كانت تحب خطيبها.. ما الجديد الآن؟

- أنتِ تدركين ما حدث.. أمك لم تدغ لنا مجالا حتى لأي نقاش في الموضوع.. لقد عزلتنا كعادتها.

- لا لقد أخبرتني أمي بالأمر وأنا أعتقد أنها على صواب فيما فعلت.. يجب عليها أن تدير الموضوع إدارة ناجحة وإلا سنقع كلنا فيما لا يحمد عقباه.

- إدارة ناجحة؟! هذه عائلة وحياة إنسان لا مؤسسة مهنية.. إلى متى ستظلون على طريقتكم هذه.. ألا يكفيكم فشل واحد في العائلة؟ لم تصرون على تكرار الأسى؟

- أولا الانفصال ليس فشلا.. ما أكثر الزيجات التي لم تنتهِ بالاستمرار وذهب كل من الزوجين في حاله، أين الفشل!

- نعم ولكن..

قاطعتها الوسطى واستمرت في التبرير باندفاع يشبه اندفاع أمها..

- ثانيا.. لقد كانت تحب خطيبها.. أي أنها لم تُجبَر عليه.. والأمر ليس مزاجا أو لعبة أطفال نستطيع أن نغير رأينا فيه وقتما نريد.. هذه عقود مغلظة وفيها التزام.. ثم هو الآن زوجها عقدا وشرعا وقانونا.. والدتك فقط سرعت الدخلة وأنتِ تعرفين السبب.

- هي الآن لا تريده..

- حسنًا.. كان عليها أن تقول هذا سابقا لا أن تقوم بما قامت به ثم تعترض وكأنها لم تفعل شيئا.

- نحن لا نعرف إن كان ما قامت به ناجما عن كرهها له أو عن شيء آخر.

- حبيبتي.. أنا وأنت في بيوتنا ووالدتك هنا أدرى بيوميات أختك.. وأنت تعرفين استعدادها للمشاكل وتمردها الدائم.. لذلك الأصلح هو ما قررته أمي.. هي واعية لتصرفات أختنا.. أكثر منا نحن البعيدتين عنها.

لم تجد الكبرى ما ترد به على كل تلك الحجج.. فآثرت الصمت.. وانسحبت بهدوء كعادتها.. لتغرق بين المدعوات.. طاوية رأيها جانبا ومكتفية بالهامش المريح خارج إطار الصورة والقرار.

-١٧-

رسائل في البحر

كلما أضافت في دفترها رسالة جديدة، زادت قدرتها أكثر على تفريغ ما بداخلها.

كانت الصفحات تتكاثر والرسائل تتوالى فتملأ دفترها أو ما كان مفترضا أن يكون كتابها الأول.

رسائل حقيقية تحمل في داخلها كل عناصر الرسالة الموجهة.. توجهها إلى مريد. تخبره فيها بكل صغيرة وكبيرة.

بدأت رسالتها الأولى بكلمات بسيطة تصف بها أرقها وعالمها الآخر تحت لحافها. عالمها الذي يبدأ بالظهور بمجرد نوم الآخرين.

مجرد وصف بسيط لما تحلم به قبل أن تنام وما ترغب أن تحلم به بعد النوم.

لكن رسالتها هذه فتحت الأبواب لكل أنواع المشاركة التي كثيرا ما تمنت الحصول عليه بصحبة إنسان ما.

كانت الكلمات تشبه في البداية ساقية خجولة تتسرب من بحيرة كبيرة محبوسة خلف سدّ يحجب المنبع، ولكن حالما بدأت القطرات بالتسرّب إلى حيز الواقع تداعى السدّ، فتفجر الحرف الحرّ وتحولت الساقية إلى نهر كبير يغدق دون توقف، بعد أن كان يتأجج خلف سدّ لا مجال لاختراقه.

تكتب رسائلها وكأنها تتحدث بالفعل إلى شخص

حاضر، وكأنها تطلق البوح الدافئ الذي يملأ فجوات النفس ويدفئ الأوصال، ويضفي فوق مرارة القصص نوعا من سكينة تجعل الحياة أمرا محتملا.

كانت كأنها تعيد اكتشاف نفسها من جديد. تركت مرآتها، وتركت الكتب، وصارت تكتب كل يوم لمريد.

صارت أقل كلاما من ذي قبل، وأقل ضجيجا، وأهدأ معشرا. فعالمها الخاص قد بدأ بتكوين معالم داخلية أشد وضوحا وأكثر تميزا.

بدأت حدود نفسها تتضح لها من خلال كلماتها الخاصة، فصارت الصفحات كأنها مرآة تريها حقيقة فكرها وحدود شخصيتها وتجعلها أكثر قدرة على بلورة هذه الشخصية التي كانت أصلا في طور التشكل والنمو.

كتبت كل شيء.. عن كل شيء، لم توفر فرصة أو تعبيرا أو جملة كانت ترهقها في حياتها إلا وكتبتها. لم تخفِ أي ذنب من ذنوبها، بل تحررت تدريجيا من كل فكرة أرهقتها وكل ذنب يناوش سكينتها.

تنامت في داخلها جرأة إخراج الكلمات، وتصاعدت قدرة البوح والوضوح في وصف حقيقة الأشياء، وتراجعت مخاوف التعبير، فسكنها براح الاعتراف وشملتها سكينة الفراغ. واكتشفت المعاني المخبوءة أكثر فأكثر عبر الأيام.

لم تكن رسائلها طويلة في البداية، بل كانت لا تتعدى ربما بضعة أسطر. لكنها ومع تفاقم إدمان الكتابة صارت

تطول، وفي بعض الأحيان قد تنمو لتصبح صفحتين وأحيانا ثلاث.

وكانت تشعر بسعادة عظيمة بعد إنهائها عددا من الصفحات دفعة واحدة، خاصة بعد أن وضعت هدف إنهاء الدفتر والبدء بواحد جديد مختلف نصب عينيها.

أصابتها راحة إخراج طعام فاسد من معدة عانت اضطرابا طويلا في الهضم. و

فهمت بشكل جليّ السبب في زيارة الناس لعيادة الطبيب النفسي.

فالنفس بحاجة أيضا إلى طبيب، ومن الممكن أن يكون الإنسان نفسه هو طبيب نفسه، وإن لم يستطع ذلك فعليه بزيارة الإنسان الثقة الذي يستطيع أن يحرره من مخاوفه ويلغي تلك العوائق التي يشعر بها تكبل تفاصيل حياته.

كل رسالة حوت بوحا أو اعترافا أو فكرة أو شوقا أو محبة أو حتى خوضا في مواضيع محرّمة في بعض الأحيان.

لم توفر فرصة لإلقاء كل ما ضاقت ذرعا بحمله إلا واستغلتها.

ومع نهاية عام كامل خاضته في تلك التجربة.. وجدت نفسها في نهايته شخصا آخر.. أكثر وعيا.. وأكثر جرأة.. وأكثر استقلالا.

والأهم من ذلك كله أكثر دقة في تحديد أصل

مشکلاته.

-١٨-

حوار.. أم جدار!

عندما ظهر خطيبها في حياتها تلاشت على الفور الحاجة لكتابة رسائل مريد، وبرزت بدلا عنها حاجة التواصل مع رجلها الحقيقي. كانت تأمل أن تعيد توجيه كل تلك الرسائل من جديد إليه هو.

تنامت آمالها سريعا بفرحة المشاركة الكاملة مع إنسان حقيقي ماثل بين يديها، بكل ما يعنيه المثول الإنساني من معنى واستطاعت تلك الفكرة بمثاليتها أن تتطاول لتجعل دفترها يغيب في أبعد نقطة داخلية في خزانتها دون الحاجة لإخراجه من جديد.

كانت فكرة المشاركة الحقيقية تسحرها بمجرد التفكير فيها، ولذلك فإن ولادة رجل حقيقي في حياتها بتلك الصورة المفاجئة والسريعة ما كان له إلا أن ينعكس عليها انعكاسا إيجابيا بشكل كامل.

في لحظة ما شعرت بنضوج شخصيتها، واكتمال الأفكار التي صنعتها بيديها، وفهمها المبدئي لنفسها بعد كل الرسائل التي كتبتها عبر عام أو أكثر قليلا، تكشف فيها كل خبايا نفسها لمريد ـالوهميـ ظاهرا ولنفسها الحقيقية باطنا.

فصارت أفكارها أكثر تبلورا وأكثر جاهزية للمشاركة والطرح على الوجه الجديد، على الفارس المعدّ كي يصبح الملجأ والوطن وبيت الأسرار ومتلقي رسائلها

الفعليّ.

بدأت العلاقة بينهما بالتطور.. خاصة في ظل شخصه البسيط اللطيف الذي يوحي في بادئ الأمر بأنه مستمع حكيم، عميق النفس، ساهم النظرة، ذو مظهر متفكّر.

تقصّ على مسامعه بداية بعضا من أفكارها، تحاول أن تبتعد قدر الإمكان عن اختزال نفسها، تطلق شيئا فشيئا مكنونات عالمها وتكشفها بين يديه.. وعلى مسمعه.

يبتسم كثيرا، وكلما ابتسم وشرد بعينيه شعرت بسرور وطاقة حيوية تجعلها تطلق نفسها أكثر بحضوره.

كان يبدو مستمعا جيدا، لكنه كان في واقع الأمر لا يستمع أصلا.

لم تكن في البداية تعي أنه مظهر دونما جوهر، أو لكي نكون منصفين بحقه فقد اتحد مظهره مع جوهره الخفيف وحياته الأفقية ليصبح تقريبا بلا جوهر أو غنى فعلي.

وهو بدوره لم يكن يعي أن ما تقوله تلك الفتاة يشكل القاعدة التي سترتكز عليها حياتها وحياته معها.

لقد كان يستمع والابتسامة تعلو وجهه لكنه في خفايا نفسه لا يعرف أكثر من حقيقة واحدة هي أن الفتيات يتكلمن بأشياء غير مفهومة كثيرة متشابكة وغير منتظمة، ولا سبيل أبدا لردهن عن ذلك إلا بالاستماع اللطيف كما نصحه يوما أحد أصدقائه ممن يدعون الخبرة مع الجنس الآخر.

لم يكن ما يفعله سيئا، بل على العكس كان بالنسبة لرجل في عمره وقلة خبرته يشكل منتهى اللطافة والرقي. ربما لم تكن سطحيته ذنبا من ذنوبه، بل كانت ببساطة ما هو عليه حقيقة.

في بداية الأمر لم تكن هي أيضا لتعي أن رسائلها لا أصداء لها في نفسه، ولا تفسير لها إلا ثرثرة فتيات.

لكن تكرار الاحتكاك كان كفيلا بظهور عجزه عن تفهم معاني ما تقوله، وعدم قدرته على أن يشملها برعاية الاستماع وسواعد التفهم وسلامة التوجيه الصحيح.

وباتت كل كلماتها وبوحها وكأنها كنوز تسكب في وعاء بلا قعر. وكان هو تلخيصا فعليا لوعاء بلا قعر.. مهما سكبت في داخله.. كأنك لم تسكب شيئا.

أما نقطة التحول الحاسمة التي جعلت العودة إلى مريد مرة أخرى أمرا محسوما لا مفر منه يشبه عودة المدمن إلى إدمانه بعد صدمة مزعجة شديدة التأثير، فما كانت إلا حادثة القبلة أو القيء التي فتحت مع انتهائها دفتر الرسائل من جديد.

لكن هذه المرة كانت الرسائل أكثر حدة وأشد جرأة يصاحبها قرار لا يقبل الجدل بعدم تركها أبدا طيلة حياتها.

ولم تجد نفسها سكينة فعلا إلا بعد بدئها من جديد في كتابة الرسائل:

رسائل وصال إلى مريد.

-١٩-

سطور

- أذكرك.. أذكر شكلك حتى هذه اللحظة.. ولا أجد من يشبهك.

عيناك.. شعرك الرمادي.. جسدك.. هيبتك.. ملابسك.. لحيتك.. نظرتك.. صوتك..

أذكرك بكل ما أنت عليه كأنك طبعت في ذاكرتي.

أنت لا تشبهه في شيء.. لا تماثله ولا في أي أمر.. لماذا لم تكن أنت هو؟

هل تعلم مدى اشتياقي إليك؟ أنتظرك في أحلامي لكنك لا تأتي.. أفكر قبل أن أنام.. أستعيد وجهك لعلّي أحظى بك في منامي.. ولكن لا شيء.

أمس تأملت أني سأراك، لكني رأيت الرجل المفروض عليّ في حلم مزعج.. كان بلا أذنين.

شاربه يطول ليلمس أطراف ذقنه.

اقترب مني.. حاول تقبيلي بشاربه..

خفت وهربت لكنه تبعني.. ثم شعرت بخدر في أوصالي.. ولم أستطع الحراك.. اقترب مني ولمس فمي بشاربه الطويل. فجأة تمدد شاربه وبدأ يدخل في حلقي، ثم بدأت بابتلاع الشعر الطويل حتى أصابني غثيان مقرف.. دون أن أستطيع الحراك أو المقاومة!

هل تعلم ماذا حدث بعد ذلك؟ استيقظت وقفزت نحو الخارج لأفرغ معدتي على الفور.

كان حلما مقرفا!

أنا متعبة يا مريد.. متعبة.. سأنام الآن.. تصبح على خير.

***

- لماذا أنا مختلفة؟

هل اختلافي هذا هو أمر جيد أم أنني مخلوق سيئ متكبر؟

هل أنا هابيل أم قابيل؟ أجبني يا مريد.. لماذا لا أتقبل طريقتهم ولا أفكارهم ولا عاداتهم! ربما أنا أصلا ابنة عائلة أخرى وقد تبناني أبي ففرضني فرضا على أمي.. ولهذا فأنا مختلفة.

ربما كنت ابنة عائلة لها جينات فكرية مختلفة، وربما كانت عائلتي الأصلية تصلها قرابة بعائلتك، هل ترى؟ ربما كنت أنا وأنت أولاد عم.

اشتقت إليك يا ابن عمي..

***

- اليوم زارنا الأستاذ صامت..

يأتي دائما لزيارتنا ومعه علبة حلوى، تمنيت مرة لو يجلب لي زهرة.. أو قطعة شوكولا.. أو أي شيء ولكن لي أنا فقط.. لا لكل أهل البيت.

هل تعلم أن الحلوى التي يأتي بها لا يأكلها أحد!

تبقى في الثلاجة حتى تقوم أمي كعادتها بمنحها لامرأة مسكينة من النساء اللاتي يترددن علينا من أجل

الدعم الشهري الذي تقدمه أمي لهنّ.

لم أذق من الحلوى التي يحضرها لنا إلا مرة واحدة فقط، فتح العلبة وأحرجني بقطعة، كانت كثيرة السكر بشكل مبالغ فيه جعلني أهرع لشرب الماء.

لا أعرف من أين يشتريها!

***

- قرأت شيئا من كلماتك اليوم.. كم أحب تلك الكلمات.. من أين تأتي بكل هذا؟ من أين لك أن تعرف كل هذه الأمور؟ هل قرأت كثيرا؟ هل علمك والداك بطريقة مختلفة جعلتك ما أنت عليه؟

أتمنى أن أتعرف إلى والديك، ما هو شكل والدتك؟ هل هي تشبهك؟ ستكون جميلة..

هل تعاملك بلطف؟ تمنحك عطفا ومحبة؟ أعتقد أنها تفعل ذلك وإلا لما كنت أنت بمثل هذه الرقة..

كم أتمنى لو عشت معك في منزل واحد، لو تلقيت كل هذا الحنان من والدتك..

هل تعلم.. أنت محظوظ! ربما لو كنت مكانك لصرت عالمة رهيبة، أو ربما أعظم مؤلفة على وجه الأرض.

***

- اليوم سيأتي.. أمي دعته إلى الغداء.. كم أتمنى أن أهرب فلا أحضر تلك الدعوة المزعجة.

مريد.. هل أنا مجنونة؟

***

- أحب شكل عيني.. لا أعرف إن كنت تحب شكل عيني أنت أيضا، لكنني عندما أنظر في المرآة أحب عينيّ.. هما صغيرتان.. وأعرف أن أمي تفضل عينيّ أختي فهما أكبر وأكثر اكتمالا، لكنني لا أحب العين الكبيرة فهي تخيفني.

أتعرف شيئا؟ أحب عينيك أنت أيضا.. ليستا واسعتين أو ضيقتين.. بل هما تشبهان بحرا محبوسا في حيز صغير.

عيناي أيضا كذلك..

أنا لست مغرورة لكنني أعلم ما شأني وشأن عيني فلا تتهمني بالغرور.

نعم أنت لن تفعل.. فأنت الوحيد الذي تعرفني حق المعرفة.

***

- لا يتكلم أبدا!

يصمت معظم الوقت.. إنه يدفعني للجنون..

إن تكلم في أحسن الأحوال فليخبرني عن تفاصيل مملة في عمله المكتبي الذي لا أفقه منه شيئا!

سألته اليوم عندما رأيته إن كان يقرأ. فابتسم ولم يرد! يا إلهي.. كأنه أصم!

سألته من جديد.. هل تقرأ؟ فهزّ رأسه ولم يرد.

كررت السؤال ملحةً عليه أن يخبرني أي نوع من الكتب يقرأ هذا إن كان يفعل. فأجاب أنه لا وقت لديه

للقراءة، لكنه قرأ بعض الكتب عندما كان صغيرا.

سألته مثل ماذا؟ أرجوك أخبرني أي كتب قرأت..

فأجابني مبتسما أنه لم يعد يذكر أيًا منها الآن.. فجأة تخيلته منشارا ضخما مصمما لاختراق أعصابي!

***

- مريد.. أحيانا أشعر بأني أكره أمي.

-٢٠-

خبر سعيد

حالما يجد الإنسان الشخص المناسب الذي يستطيع أن يلقي أعباء فكره وهواجسه لديه، فإنه يلازمه ويستمد ارتياحه وتجديده الدائم لواردات فكره من وجود هذا الكيان الداعم.

لقد كان حصولها على صديقها السري أمرا من سبيله أن يدعم فجوة التواصل بينها وبين أهل بيتها وعلى رأسهم والدتها، هذا إن نظرنا إلى الأمر من جهة الفتاة، أما إن نظرنا إليه من جهة الأم فسنرى مشهدا آخر يتجسد من خلال ملاحظة الأم يوما بعد يوم مدى التغير الذي أصاب ابنتها وأبعدها عن النهج العائلي السديد وزاد من قدرتها على اصطناع الجدل واقتناء الأفكار المستوردة من مصادر أخرى كانت الأم نفسها تجهلها وتحقد عليها لعبثها الخفي بعقل ابنتها.

لكن الأمر الأكيد أن حصولها على مريد لم يمس علاقتها الحميمة مع والدها بل على العكس تماما، فقد فتح بينهما آفاقا جديدة أكثر نضجا وأعمق ترابطا في ظل استقرار نفسها وابتعادها التدريجي عن توترات المراهقة وما يرافقها من طرح لأمور أنثوية خاصة، كالتي كانت تصرّح بها أحيانا لوالدها بعفوية مخجلة أحيانًا دون أن يكون هو على خبرة بها.

صارت الحوارات سلسة لا يطالها الإحراج القديم.

وتكاملت الآفاق الرحبة بين الاثنين.

وإذ أخذ الأب يشعر باتساع أفق ابنته لم يتردد هو الآخر بنقل وتطوير حيز البوح الخاص به أيضا، وانتقل بدوره من حيز المستمع إلى حيز المتكلم.

لم يكن يحمل أسرارا أو أمورا مخفية تثقل كاهله، لكنه كان يحمل ماضيا مختلفا ودربا ربما لو أكمله لكان يعيش حياة أخرى الآن ومع أشخاص مختلفين.

كان يحمل اختلافا إذن وطريقا مغايرا للطريق العام في الأسرة، ورؤية قائمة على التقبل أكثر مما هي قائمة على التشبث أو الإلحاح الشرس في ضبط أمور المحيط.

ولكن ما كان لشخص مثله أن يبرز معتقداته أو يبارز بها فعليا إلا عند وجود الرديف الحقيقي لفكره، المتمثل بتلك البذرة الصغيرة التي نمت وتشكلت وأصبحت بذلك الوعي المتفتح، الأمر الذي دعاه أخيرا لفتح صندوق ماضيه وكشف اختلافه أمامها وعلى مسامعها.

لقد أخبرها عن تفاصيل حياته قبل الزواج، وقد تعدى الأمر في بعض الأحيان إلى إعلانه المباشر عن تعارضه هو شخصيا مع طريقة زوجته وسيدة منزله، وتلك كانت سابقة لم يكن ليخبر بها أحدا من قبل.

أما هي فكانت كثيرا ما تسترسل في عرض أفكارها الجديدة، وكأنها قد تلقتها من فم أستاذها مما كان يزيد من دهشة الأب.

معتمدة في ذلك على فطرتها السليمة وتمردها من

ناحية.. وعلى ما قرأته في كتب مريد من ناحية أخرى، وما تحتويه تلك الكتب من تناول للجانب الديني بتبسيط وسلاسة وهدوء بعيد عن التشنج.

من المدهش ما يمكن للقراءة أن تفعله خلال عامين اثنين فقط في الذهن الرشيق الجاهز للتلقي، ومن المدهش ما قد نراه من نتائج ذلك في عقل من اتخذ القراءة شغفا وطريقا بدلا من السبل المفروضة سلفا.

وقد كان مرة أن سألها الأب السؤال الذي انتظرته طويلا كي تبدأ من خلاله طرح أسئلتها هي شخصيا دون أن تثير الشكوك.

سألها عن الكتب التي قرأتها أو تقرؤها من مكتبة العائلة، وعن أكثر الكتب التي أثرت فيها وجعلتها تعيد صياغة فكرها من خلالها من جديد.

أخبرته على الفور بعد أن صبغت الحمرة وجهها عن كتب مريد.

لم تكن طبعا لتستخدم نفس الاسم بل استخدمت أسماءه الأولى مسبوقة بلقب الشيخ كي لا تلفت النظر إلى العلاقة السرّية التي ربطتها بمريد حسب اعتقادها.

واسترسلت في وصف محتوى الكتاب الأول الذي قرأته. الكتاب الذي سقطت بسببه وفقدت وعيها.

تكلمت كأنها تتكلم عن أفكارها الشخصية وسيطرت على نفسها كثيرا كي لا تأتي على ذكر القصة الحقيقية التي ربطتها بمريد، فأخفت قصة الحلم ودفتر الرسائل.

ولم تكن لتزيد عن ذلك حتى سمعت والدها يقول:

- رحمه الله. رغم أهميته الفقهية والتاريخية فإن كثيرا من العلماء الذين كانوا أقل شأنا منه يحظون بشهرة أكبر من شهرته، أما هو قد منحه الله الهدوء والسلام الذي كان دوما ينشده في حياته بعيدا عن الأضواء والجدل، وحتى في مماته.. فقبره منعزل، بعيد عن مقبرة الصوفية التي دفن فيها كل من كان مثله.

سألته فورا:

- وهل قبره موجود هنا؟ أقصد في المدينة؟

- طبعا.. لقد عاش ومات ودفن هنا.. رغم أنه لم يولد هنا.

- وأين يقع قبره؟

- في مركز المدينة القديمة.. في مقدمة السوق.

اتسعت عيناها وشعرت بطاقة غريبة تندفع من صدرها باتجاه رأسها ومن رأسها باتجاه يديها اللتين أخفتهما خوفا من أن تظهر رعشات الارتجاف التي انتابتهما.

وما كان من الأب الذي فهم لمعة الاهتمام إلا أن ألقى عليها ربما أجمل سؤال قد سمعته في حياتها:

- هل ترغبين بزيارته؟

هل ترغب بزيارته! لعلها لم ترغب بشيء طيلة حياتها حتى الآن أكثر من تلك الزيارة!

ربما لم تكن فعليا قد تخيلت القبر أو تصورت زيارتها له من قبل.. لكنها كانت قد تخيلت كل ما دون ذلك.

طبعا تحب أن تزوره. بالتأكيد لن يكون لديها طلب أغلى من ذلك الطلب. وخاصة إن أتت زيارتها تلك بصحبة والدها.

ستفعل ذلك بلا تردد.

وكان وعدا قطعه الأب لها بزيارة القبر. وعدا لم تتركه هي مفتوحا بل ضبطته بموعد محدد في عصر يوم قريب شاءت الأقدار أن يكون ماطرا محملا بغيوم الخريف.

-٢١-

جنة مريد

كان نهارا شتائيا رغم أن الشتاء الحقيقي لم يكن قد ابتدأ فعليا بعد.

الأرض مبللة من مطر الليلة السابقة والشوارع ندية رطبة وشبه فارغة نتيجة الحذر الأولي الذي يبديه سكان المدينة عادة في الخروج بعد أول ليلة ماطرة.

لم يكن القبر بعيدا عن منزلها. خمس عشرة دقيقة على الأكثر ما بين الحي الذي تسكن فيه والمدينة القديمة.

جلس والدها بجانب سائقه العجوز، وجلست هي في المقعد الخلفي. ورغم قصر الطريق فقد شعرت بأنه لا ينتهي، كانت كمن يعد الثواني للقاء حبيبه الغائب.

راقبت النافذة التي شكل البخار فوقها طبقة ضبابية كاملة، فكتبت عليها مريد ورسمت بجانب الاسم قلبا، ثم كتبت في الجانب الآخر وصال.

ابتسمت لما رأت الاسمين بجانب بعضهما، وشعرت بأن الدنيا بأكملها لن يكون فيها اسمان مناسبان لبعضهما أكثر من هذين الاسمين، «مريد ووصال».

أية مودة قد جمعت بين حروف الاسمين، أي سرّ ربط بين الحاضر والماضي، بين الواقع والحلم، بين الشمس والقمر، بين.. وبين.. كانت روحها تهفهف مع قطرات المطر الناعمة التي عادت لتتساقط بهدوء، وعقلها

يخترع الروابط الجميلة بينها وبين من تكتب له يوميا.

لم يكن الطقس أكثر تناغما مع نفسها أكثر من هذه اللحظات.

اضطرت السيارة للتوقف على إشارة أخيرة قبل الوصول إلى المكان المنشود، فمسحت الاسمين من فوق النافذة خوفا أن يراها أحد.

ركن السائق السيارة في حي ضيق، وبقي هو بالانتظار، بينما دخلت هي مع والدها في الحي الذي يعتبر أحد مداخل المدينة القديمة.

تأبطت ذراع والدها بدلال، كانت السعادة تشع من عينيها الضيقتين، فتجعلهما أشبه بعيني عصفور نشيط لا يستطيع الركون في مكانه.

كان القبر موجودا ضمن حديقة داخلية مفتوحة على الحي، وموصولة ببيت الشيخ الذي أصبح مدرسة ومسجدا صغيرا لأبناء المنطقة.

وصلا إلى السوق الضيق الذي يقع فيه المنزل، فاستطاعت أن تقرأ اسم الحي مكتوبا على لافتة خشبية قديمة؛ حي البستان.

تذكرت على الفور البستان الذي استضافها في منامها الجميل، فابتسمت وسَرَّها ذلك التطابق الذي جعلها تؤمن أكثر بأن الرابطة بين روحها وروح مريد رابطة حقيقية لا يطالها الشك.

اقتربا من باب الحديقة، فقال الأب:

- هنا قبر الشيخ وهنا إلى هذا الجانب بيته الذي أصبح مدرسة ومصلى صغيرا كما ترين، على فكرة المدرسة فيها مكتبة صغيرة معروفة، مليئة بالكتب والمخطوطات الأثرية والأبحاث الشرعية.

- كيف تعرف كل هذا؟

- لقد جئت إلى هنا العديد من المرات عندما كنت طالبا، دراستي كانت تتطلب مني البحث أحيانا في مكتبات المدارس القديمة.

- هل نستطيع الدخول إلى المكتبة بعد الانتهاء من زيارة القبر؟

- أعتقد ذلك. مازال المكان مفتوحا للطلاب على ما أعلم.

وصلا أخيرا.

كان للباب عتبة حجرية مرتفعة تظهر من ورائها أوراق شجر الليمون ثم طرف من القبر الحجري.

رفعت قدمها فتجاوزت العتبة التي شعرت بأنها العائق الأخير الفاصل بينها وبين مريد، وما أن تجاوزتها حتى فوجئت بكمية من العصافير التي طارت بمجرد دخولها والتي كان واضحا بأنها من سكان المكان الهادئ.

بين تصفيق الأجنحة الصغيرة وتطاير الزغب الناعم تجاوزت العتبة فصارت في منتصف الحديقة المليئة بالشجيرات ونباتات الزينة، وظهر لها القبر كاملا.

كان القبر في الثلث الداخلي من الحديقة، في الجانب

لا المنتصف، يحيط به حوض حجري فيه شجيرات ليمون وياسمين وعرائش عنب شكلت خيمات صغيرة فوق عدة أجزاء من الحديقة، وفي الحوض أيضا فروع خضراء وأغصان معرشة على الجدران لزهرة محلية ذات رائحة جميلة لم تكن تعرف اسمها.

في المنتصف توجد شجرة برتقال ضخمة، نبتت داخل حوض صغير مخصص لها فقط، وألقت بأغصانها كغطاء فوق القبر.

أما القبر فكان بسيطا لا يشبه في شيء تلك القبور التي تبنى بمبالغة ويتم تسويقها من أجل أن تصبح مزارات وأماكن فاخرة للسياحات الدينية.

حتى هي لم تكن تتوقع بساطة القبر، الذي بني من الحجر الأبيض، وارتفع شاهده مسافة بسيطة فوق سطح الأرض، كتب فوقه بخط أسود اسم الشيخ وتحته العبارة التالية:

«ولعل محبتي تشفع ليَ اليوم من ذنبي».

فوق القبر الأبيض استقرت برتقالة صغيرة متوهجة اللون كان يبدو أنها قد وقعت حديثا من أغصان الشجرة التي تعانق القبر.

اقتربت من القبر، كانت تريد أن تلمسه، لكنها لاحظت أباها خلفها يقرأ الفاتحة ففعلت مثله.

قرأتها بتمهل وهدوء، وتمنت من ربها الرحمة لمريد، تمنت له أن يكون قد وصل إلى المحبة التي كان ينشدها في حياته، تمنت له السعادة والسلام والفرح

في مكانه الحالي، وشعرت فجأة بشعورين متداخلين؛ الخوف من الموت نتيجة القلق عما سيؤول إليه حالها، وتمني الموت في الوقت نفسه نتيجة شوقها للقاء الله.

كان المزيج جديدا في نفسها، ومفضيا إلى المكان الروحي الأكثر جمالا؛ الترجي والخشوع مع الدعاء الفطري الذي يخرج تلقائيا من قلب أنار الإيمان فجأة كل حجراته، فلم تبقَ ولا زاوية مظلمة إلا وشملها النور الرحيم.

أغمضت عينيها ودعت ربها أن يغفر لها، وأخبرته بشوقها إليه وحاجتها إلى رحمته. كانت كل ذرة في كيانها تدعو معها.

كان شعورا مختلفا جعلها تشعر باكتمال مريح في نفسها.

فتحت عينيها ثم مشت نحو الحوض الحجري وجلست على طرفه، تستمتع بتلك اللحظات النادرة من السكينة. فتبعها أبوها وجلس بجانبها على طرف الحوض.

سألته:

- ألم يكن له عائلة وأولاد؟ كيف صار بيته مدرسة ومكتبة ومسجدا؟

- كلا، هو لم يتزوج مطلقا. يبدو أن حياته كانت مزدحمة إلى الدرجة التي لم يجد فيها وقتا للزواج، عدا عن أنه قد توفي عن عمر صغير لم يتجاوز الأربعين على ما أذكر.

اتسعت ابتسامتها، كان وقع المعلومة جميلا في نفسها. طبعا، فحبيبها لم يجد الفتاة المناسبة لأنه كان ينتظرها أن تأتيه من زمن آخر.

كان ينتظر وصاله التي ستزوره أخيرا وتدخل جنته الصغيرة المليئة بالأشجار والعصافير.

- هل من الممكن ألا يكون قد تزوج لأنه امتلأ بمحبته التي يصفها دوما في كتبه، فأغنته تلك المحبة الإلهية عن الارتباط ومشاكله؟

- لا يا ابنتي، فهذه محبة، وتلك محبة أخرى تماما. محبة الله كما يصفونها لا تمنع محبة البشر، بل على العكس، من أحب الله حقيقة شعر بتلك الطاقة الصرفة التي تتسع لمحبة كل شيء. الإنسان بحاجة وفق تكوينه النفسي والجسدي لمحبة الإنسان. ومحبتنا لله ستزيد من إمكانيات محبتنا للبشر ولا تنقصها.

- لكن محبتنا لله ومحبة الله لنا ستجعلنا نستغني عن حاجتنا للآخرين، لأن الله معنا متكفل بنا وبحاجتنا.

- نعم سنستغني عن تعلقنا بالحاجات لا الحاجات نفسها، لأن الله هو من خلق الحاجة في نفوسنا وهو من خلق الطريقة المثلى لسدّ هذه الحاجة. إن كنت جائعة مثلا، فالجوع شعور خلقه الله، وطريقة قضاء هذه الحاجة يكون بأن ننهض ونجد ما نأكله حلالا. ومن جهة أخرى شعورنا بالجوع ليس من المفترض أن يجعلنا عبيدا للطعام وشهوته، وبين هذا الحد وذاك تكمن صحة الإيمان وتزهر براعم المحبة.

- نعم هذا إن كنا نحب فعلا من سنرتبط به.

قالت كلمتها تلك وشعرت بأنها تسرعت ونطقت ما لا يحبذ التفوه به، فحديثها هذا بعد عقد القران ليس له إلا أن يدخل الحزن على قلب والديها ويجعل الأمور أكثر تعقيدا. أما والدها فقد صمت بعد الذي قالته ليفكر بكلماتها وما يمكن أن تعنيه فعلا.

خافت من الصمت في تلك اللحظة فقاطعت تفكير والدها المرتبك وقالت:

- كم أحسد الشيخ.

- تحسدينه على ماذا؟

- أنه مدفون هنا، كيف لي أن أدفن في مكان جميل كهذا عندما أموت؟

- فكري في الحياة يا ابنتي، أمامك درب ستزرعينه بالرضا والمحبة والحسنات.

- نعم ولكن، عندما يأتي الموت لا أحب أن أدفن في المقابر الجماعية.

أشفق الأب على ابنته الصغيرة، زهرته التي تفتحت حديثا وأسرعت بالتفكير بالموت ومكان الدفن، وشعر بندم هو الآخر لأنه قد أتى بها إلى هذا المكان.

- بابا.. ما رأيك أن نشتري أنا وأنت منزلًا صغيرًا له حديقة، ونوصي بأن ندفن فيها؟ سيكون قبرانا متجاورين كي نؤنس بعضنا بعضا.. وسأزرع شجرة برتقال وليمون وياسمين، وأيضا سأزرع تلك الزهرة التي

تعرش هنا وهناك، أريد نفس هذه الحديقة بالضبط.

سكت الأب مرة أخرى، كان لا بد له من بعض التفكر إزاء كلمات ابنته التي تخفي تحتها حزنا ورفضا واضحا للزواج ولطريقة الحياة المفروضة.

قطعت الصمت للمرة الثانية وقالت ببهجة ودلال كي تمسح آثار الحديث الأول:

- بابا.. هل أخبرك سرا؟

ابتسم الأب وهزّ رأسه.

- هل تعلم ما هو الاسم الذي سأختاره لنفسي لو كان لي الخيار؟

- عفريتة؟ مجنونة؟ ممم.. سنجابة؟ عصفورة؟

- لا طبعا! سأختار وصال.

قالت الاسم ورفعت رأسها بفخر، والتفتت نحو القبر وكأنها تغمز لصاحبه الذي اختار لها الاسم بنفسه.. كما تعتقد هي.

ضحك والدها وقال:

- حسنًا يا آنسة وصال، ما رأيك أن نذهب إلى المكتبة، كان لي صديق من المسؤولين في الداخل، وأريد أن أتأكد إن كان لا يزال موجودا حتى الآن.

لم تكن في تلك اللحظة بحاجة إلى شيء أكثر من أن تكون لوحدها في جنة مريد، فانتهزت الفرصة وأخبرت أباها بأنها ستبقى قليلا ثم ستتبعه.

خرج الأب من الحديقة ودلف في الباب التالي، وبقيت

هي وحيدة تجلس فوق الحوض.

نظرت نحو القبر وقد أشرقت ابتسامتها:

- أنا وأنت لوحدنا الآن يا مريد، لا أحد معنا، هل ترى.. ناديتني فأتيت. إذا هذا هو بستانك الجميل، وهذا هو بيتك.. لم أتخيل أنك تعيش هنا، عندما قرأت كتابك تخيلتك من أرض أخرى، لكنك من نفس مدينتي، هل تعلم كم أدخل ذلك السعادة إلى قلبي؟ وأنا الآن في بيتك، بيتك الذي عشت فيه وقضيت حياتك تفكر وتكتب فيه. تخيل أنني الآن أمشي وأجلس ربما حيث مشيت أنت وجلست. هل لمست يداك مرة جذع هذه الشجرة؟ أو تلك الجدران؟

ثم نهضت فمرت بيدها على كل الجدران الموجودة، كي تمس أكبر قدر ممكن من المساحات في تلك البقعة الجميلة.

خطرت لها فكرة، ففتحت حقيبتها وأخرجت دفترها الذي كانت تحمله معها اليوم بكل تأكيد، ثم انتزعت ورقة منه، وأخرجت قلمها وكتبت:

«مريدي الحبيب، قلبي لك.

وصالك».

طوت الورقة بعناية وحفرت في تراب الحوض ثم دفنتها قريبا من ساق طويلة فيها فروع مزهرة.

دارت بعد ذلك حول القبر، الذي كانت جوانبه الثلاثة حرة مفتوحة تحيط بها أرض الحديقة والشجرة

والحوض، أما الجهة الخلفية فقد كانت تحصر وراءها فراغا ضيقا جدا ما بين القبر ذاته والجدار الحجري للحديقة.

أدخلت جسدها النحيل داخل تلك الفجوة الخفية، فأسندت ظهرها للحائط ثم ثنت ركبتيها فضمتهما إلى جسدها واستقرت خلف القبر فاختفت عن العيون.

- لو كان لي الأمر لعشت هنا، بجانبك، لا أريد إلا هذه الحديقة وغرفة صغيرة بجانبها. سأرش أرض الحديقة والنباتات كل يوم بالماء، وسأضع فتافيت الخبز للعصافير، وسأغني لك الكثير من الأغنيات. هل تعلم أن صوتي جميل؟ كل من سمعني يقول ذلك، سأغني لك الآن أغنية.

بدأت تغني أغنية تحفظها منذ الصغر. بصوت منخفض، كأنها ترنيمة تغنيها لطفل قبل أن ينام، صوت يشبه الهمس، ويشبه قطرات المطر الخفيفة التي بدأت تهطل من جديد، فتصدر نقرا ناعما عند لقائها بأوراق شجرة البرتقال.

تمنت لو يتوقف الزمن وهي مزروعة في فضاء تلك السكينة أو تلك الفجوة الزمنية التي أخفتها ونقلتها بعيدا عن عالمها، ولم تكن لتنهض من مكانها لولا أن مدّ والدها رأسه من باب المكتبة ونادها كي تأتي إليه بعد أن وجد صديقه القديم.

نهضت مسرعة كي تلحق به، لكنها وقبل أن تخرج مدت يدها سريعا وقطفت واحدة من الزهور المعرشة،

فأخفتها بين صفحات دفترها، ولم تكتفِ بها بل أخذت أيضا البرتقالة التي كانت فوق القبر، بعد أن اعتبرتها هبة متروكة لها خصيصا، فوضعتها في حقيبتها بسرعة، ثم خرجت من باب الحديقة بعد أن ودعت «مريدها» بنظرة أخيرة ملؤها الفرح.

-٢٢-

خيط ومخطوطة

لم تكن المكتبة ضخمة، بل كانت عبارة عن عدة غرف من البيت مليئة برفوف خشبية قديمة وضعت عليها الكتب والمصنفات والمخطوطات وفقا لترتيب معين مدون على أوراق تم لصقها فوق الرفوف.

عندما دخلت وجدت والدها يقف مع عجوز قصير القامة خفيف الشعر يضع نظارة سميكة ذات إطار أسود.

اقتربت منهما فقام والدها على الفور بتقديمها لصديقه القديم الذي رحب بها، وأصر أن يقدم لها ولوالدها كوبا من البابونج الساخن، المشروب الذي لم تكن تطيق رائحته، لكنها مع ذلك شربته دون تذمر.

في هذا اليوم تحديدا لم تكن لتجد شيئا يستحق التذمر، فقد كان قلبها راضيا مرضيا بكل شيء.

جلسا على مقعدين خشبيين عتيقين مقابل مكتب العجوز المليء بالكتب والأوراق.

قال والدها:

- ابنتي قارئة جيدة، وقد قرأت بعض كتب الشيخ رحمه الله، فأحببت أن أريها قبره وبيته ومكتبته.

- بيت الشيخ يعتبر مكانا أثريا لأنه مازال محتفظا بهيئته وجدرانه القديمة دونما ترميم، الأثاث طبعا هو فقط ما تغير.

قالت:

- لم أتوقع أن أدخل بيته بعد أن قرأت كتبه، لولا أن أخبرني أبي أن قبره هنا لما عرفت، لقد توقعت أن يكون في بلاد أخرى.

- ما هي الكتب التي قرأتِها للشيخ؟

قالت له أسماء الكتب واحدا تلو الآخر، فابتسم وقال:

- ما شاء الله، لقد اطلعتِ على جزء جيد من مؤلفاته.

- وهل هناك غير ما قرأت؟

- طبعا، هناك عدة كتب موجودة لدينا ومتوفرة في الأسواق، ولكن ما لن تجدينه في الخارج هو عدد من المخطوطات المكتوبة بيد الشيخ نفسه، تلك الكنوز لن تجديها إلا هنا في هذه المكتبة.

قال جملته تلك باعتزاز وفخر بالغين.

فابتسمت وقالت:

- وكيف أستطيع الحصول عليها؟

- من الممكن أن أقوم بنسخ واحدة منها فقط لتحتفظي بها، أما الباقي ففير مسموح لنا أن ننسخ منها شيئا.

- وهل أستطيع الاطلاع على الباقي؟

- هذا الأمر مسموح للباحثين وطلاب العلوم الشرعية وطلاب الدراسات العليا ممن يعدون الأبحاث ورسائل التخرج، على كل حال عندما تودين الاطلاع على الباقي سنقوم بما يتطلب الأمر، والدك من أهل المكان،

وسنعتبر أنك تتابعين أبحاثه التي كان يقوم بها لدينا.

شكرته هي ووالدها، ثم أنهت مشروبها المزعج وسألته بلهفة:

- هل أستطيع أن أرى المكان؟

- طبعا، مسموح للعموم الدخول إلى غرف المكتبة دائما خلال أوقات الدوام الرسمي، بعض الغرف مقفلة طبعا ممنوع الدخول إليها إلّا من قبل الإدارة، الغرف المفتوحة هي التي تحتوي على الكتب، ستجدينها موزعة بعد الممر مباشرة.

قال والدها:

- اذهبي أنتِ، سأبقى أنا هنا مع الحاج ريثما تنتهين من جولتك.

خرجت وحدها، وبقي الأب مع صديقه يستمتعان بالكوب الثاني من مشروبهما الساخن.

كان الرواق بعد غرفة الإدارة طويلا مفضيا في آخره إلى فسحة سماوية تتوزع على جوانبها أبواب الغرف.

دخلت الغرفة الأولى، كانت الرفوف تملأ المكان الذي يعبق برائحة الورق القديم والخشب العتيق.

ذكرها المنظر بمكتبة أسرتها الضخمة، لكن الرفوف هنا لم تكن بذلك الارتفاع الكبير.

أكملت جولتها، فدخلت الغرف واحدة تلو الأخرى، كانت غرف المكتبة متشابهة، رفوف وكتب وتصنيفات مع مقاعد وطاولة خشبية في المنتصف.

أنهت الجولة سريعا في الغرف المفتوحة، لكنها طبعا ونظرا لشوقها وطبعها المتمرد لم تكن لتكتفي بما سمح لها به، بل امتد نظرها على الفور نحو الممر الآخر في الجهة المقابلة للفسحة السماوية، والذي كان واضحا بأنه يحتوي على الغرف الداخلية المحرّمة.

منذ طفولتها كانت كلمة ممنوع هي الإشارة الخضراء لأفعالها.

كانت دائمة الاستمتاع بتلك التجاوزات التي تقوم بها لكسر أطواق الممنوعات، وكلما فعلت شيئا من هذا القبيل شعرت بنمو قوتها وقدرتها على كسر الخطوط الحمراء.

نظرت إلى الخلف فلم تجد أحدا، كان يبدو أن المكان خالٍ اليوم إلا من صديق والدها العجوز.

مشت بخفة حتى دخلت الممر، فوجدت أربع غرف مغلقة موزعة على الجانبين بالتساوي، اقتربت من إحداها نقرت على الباب تحسبا.

لم يكن هناك أحد.. فحاولت فتح الباب لكنه كان موصدا.

أصابتها خيبة أمل أطفأت حماسها.

انتقلت إلى الباب الثاني فالثالث لكن النتيجة كانت واحدة، الأبواب موصدة.

شعرت بحنق شديد على إدارة المكان، لو أنهم يعرفون مكانتها عند صاحب المنزل لفتحوا لها الأبواب فورا

ولصارت هي الآمرة والناهية هنا.

اقتربت من الباب الرابع، وكان أملها الأخير.

نقرت الباب ثم حاولت فتحه.. فتحرك الباب بسهولة عندما دفعته، ووجدت نفسها فجأة داخل غرفة من الغرف الممنوعة.

تسارعت نبضات قلبها وأثارها الحماس، فنظرت نحو الممر كي تطمئن لعدم وجود أحد، ثم دخلت بسرعة.

كانت الغرفة كبيرة بعض الشيء فيها قطع أثاث قديم جدا، ربما هي من بقايا آثار أهل المنزل.

إلى اليمين توجد طاولة أشبه بمكتب، فوقها زجاجة صغيرة تستخدم للحبر، ووراء الطاولة مقعد خشبي جعلته الأيام داكنا يميل إلى السواد.

كان واضحا ـبالنسبة إليهاـ أن هذه هي الزاوية التي كانت مُعدة للكتابة والتأليف.

ها هي الآن ترى الركن الذي ألف فيه كتبه، والطاولة التي كتب فوقها كلماته، تلك الكلمات التي غيرت عالمها وأوصلتها إلى هذا المكان الساحر.

- إذًا هنا كتبت كل ما كتبت! هنا كنت تجلس يا مريدي، هنا كنت تفكر.

مدت يدها نحو المكتب فلمسته ولمست كلًا من دواة الحبر الزجاجية والمقعد الداكن.

في الطرف الآخر كانت توجد خزانة مطعمة بالصدف، قد خرج الكثير من صدفاتها من مكانها، وبقي القليل

فقط على حاله.

بجانبها مقعد واسع يوجد فوقه بعض المخطوطات المغلفة بعناية بغلاف شفاف، وأيضا توجد قطع من القماش المطوية، التي بهت لونها حتى صارت تقريبا بلا لون.

اقتربت نحو الخزانة فجربت فتحها لكن الباب كان مثبتا من الصعب فتحه، فامتدت يدها نحو القماش، حملت قطعة منها وفردتها، كانت قطعة قماشية فاتحة اللون تظهر من أطرافها خيوط خرجت من الحياكة الأصلية نتيجة تراكم السنين، وكانت تبدو كشال مما كان يوضع فوق الرأس.

ربما كان هذا هو شال مريد. شاله الذي يضعه فوق رأسه كلما أحب أن يخرج.

مررت أصابعها فوق القماش المتهالك بشغف:

- ها قد لمست شعرك الأشهب أخيرا.

فجأة سمعت صوتا من الفسحة السماوية، كان واضحا أن أحدا قد دخل غرفة من غرف المكتبة، فأعادت طيّ الشال بسرعة، لكنها قبل أن تخرج سحبت خيطا من خيوط الشال السميكة، فلفته ووضعته في حقيبتها، ثم خرجت بعد أن اطمأنت أن الممر والفسحة السماوية خاليان تماما، فأغلقت الباب وعادت مسرعة إلى حيث يجلس والدها مع صديقه.

***

خرجت مع والدها في ذلك اليوم من المكتبة، وبين يديها نسخة من مخطوطة صغيرة ألفها مريد في آخر حياته، وفي حقيبتها برتقالة وخيط وزهرة، وفي قلبها فرح طفولي عارم ومحبة لا تعرف الحدود، وامتنان جميل لوالدها الذي لولاه لما التقت بحبيبها ولا تجولت في منزله وبين أشيائه.

-٢٣-

الرسالة الأخيرة

- شكرا على الهدايا.. وشكرا لأنك دعوتني إلى بستانك الجميل.

يا الله.. كم أحببت بيتك..

آسفة لأنني دخلت غرفتك الخاصة، كان لابد لي من ذلك، ما كنت أنت لتفوت تلك الفرصة أبدا لو كنت مكاني.. أنا واثقة من ذلك.

أحببت وشاحك الأبيض، ربما يحتاج إلى الغسيل ليعود ناصع البياض..

هل تتخيل.. الصفحة الأخيرة من دفتري هي الصفحة التي ستحفظ دخولي إلى منزلك وجلوسي بقربك تحت المطر.

الرسالة الأخيرة من رسائلي، ستكون مختومة بلقائنا.

هل تعلم بأنني عدت فورا لأبدأ بقراءة كلماتك! خطك أنيق رشيق، يشبه خط إحدى صديقاتي، هي تكتب حرف النون مثلك مع إضافة سن صغيرة في آخر الكلمة بدلا من النقطة.

لم أتوقع أن أقرأ أخيرا شيئا مكتوبا بخط يدك.

شارفت الصفحة على النهاية.. سأشتري اليوم دفترا جديدا..

انتظرني..

***

كان هذا آخر ما كتبته في دفترها.

كانت فخورة به بعد أن اكتمل، فخورة بكل تلك الكلمات التي خرجت من روحها تباعا.

لقد شهدت بنفسها أن بياض الأوراق هو أكثر الأشياء تحديا في وجه من يهوى الكتابة، ولم يكن هذا البياض ليمتلئ لولا حوارها المستمر مع مريد.

لقد هزمت دفترها اليوم، وحولته من مجرد أداة إلى كنز ثمين، فيه مريدها وفيه نفسها وفيه بحر من محبة وبحر من شوق وبحور من الأسرار والخبايا.

كانت فرحة بإنجازها وتتمنى أن تشارك الجميع به، تتمنى أن تخبرهم بأنها أنهت دفترا كاملا ستعتبره مصنفها أو كتابها الأول.

ستشتري اليوم دفترا جديدا وستتحداه أيضا.

ربما حماستها تلك وشعورها الفخور بنفسها، هو ما جعلها تخطئ لأول مرة بإخفاء أثرها فتضع الدفتر في مكان سطحي ولا تدفنه عميقا كعادتها.

وربما أيضا شعورها بالأمان بعد فترة من الهدوء النسبي مع والدتها، وعلاقتها المزهرة مع والدها، قد جعلاها تظن أنها كبرت وصارت مسؤولة بشكل ما عن بعض قرارها، فها هي ذي والدتها تكف عن ملاحقتها والتفتيش من ورائها، ومضايقتها بجلسات الاعتراف وما إلى ذلك من إزعاج.

لقد صار شعورها بالتحرر من خوف الاختباء أكثر

وضوحا بعد قراءتها المتزايدة واتساع دائرة اطّلاعها، وزيارتها للمكتبة مع والدها.. وأخيرا.. إنهائها لدفترها الذي بين يديها.

كل هذا إذًا جعلها تستخف وتتحرر من دفن دفترها في آبار المخابئ.

وربما لو أن جميع أهل بيتها قد عرفوا بأمر الدفتر لما كانت ستتعرض لأي مشكلة مثلما لو عرفت والدتها بذلك. ولكن للأسف.. فهذا ما حدث فعلا.

وضعت دفترها في مكان سطحي وخرجت مع صديقتها لتشتري دفترا آخر. فدخلت الأم التي لم تكن لتستسلم بتلك السهولة، بل كانت تتبع خطوات ابنتها منذ بضعة أسابيع وتفتش في أشيائها بشكل مكثف وشبه يومي كي تمسك طرف خيط يوصلها إلى سر التغيير الذي تراه فيها.

فشلت سابقا في إيجاد أي شيء، إلى أن جاءتها الفرصة في هذا اليوم على طبق من ذهب، ففتحت درجين ثم الثالث ووقع الدفتر فريسة سهلة بين يديها.

أمسكته على الفور بعد أن عرفت بفراستها أنه قد يكون ما تبحث عنه.

فتحته وبدأت القراءة.

ولو كان هناك آلة خفية تصور وجهها في هذه اللحظات لكانت ربما التقطت أكثر لحظاتها انفعالا منذ أن أتت إلى هذه الدنيا.

كانت تقرأ وتتمتم، تخرج من بين شفتيها الحادتين كلمات مبتورة.. مرات تعيد اسم مريد، وكأنها تريد أن تحفظه، ومرات تكرر جملا وكأنها لا تصدق ما تقرأه، ومرات تشتم ابنتها بشتائم مكررة:

- الحقيرة.. الحقيرة!

قرأت بسرعة هائلة، كانت تقفز فوق الكلمات وكأنها تريد أن تلتهم الصفحات التهاما قبل أن يجف الحبر وتختفي الحروف.

لم تكن صاحبة المولد تعرف ما الذي ينتظرها في البيت هذا النهار، بل كانت تنتقي دفترها الجديد من بين مئات الدفاتر، تبحث بين الألوان والنقوش والاختيارات الكثيرة، وكان هذا في تلك الأثناء يعطي والدتها الوقت الكافي لإنهاء ما تحاول أن تقرأه.

عندما عادت إلى البيت كان معها دفتر أحمر مزين بوردات بيضاء صغيرة، لكن لون الدفتر لم يكن أشد احمرارا من وجنتها، التي تلقت كالعادة صفعة قوية محملة بغضب والدتها الشديد، وقعت على إثرها أرضا.

العاصفة التي شهدتها بعد ذلك جعلتها شبه ذاهلة، لا تعرف كيف ترد الاتهامات والازدراء والألفاظ الجارحة، التي انهالت عليها لتجعلها مستمعة فقط غير قادرة حتى على شرح حقيقة الموقف.

والحقيقة أن موقفا كهذا من الصعب بل ربما من المستحيل شرحه بشكل صحيح، ما الذي ستقوله عن نفسها وعن مريد؟ أتحب شخصا رحل عن هذا العالم

ربما منذ ما يزيد على مائة عام أو أكثر!

ولمَ تحبه؟ لأنها قرأت كتابه!

كيف لها أن تشرح أن كتابه قد ناداها في حلمها؟ كيف لها أن تقنع الجميع أن حلمها كان رؤيا حقيقية، وأنها لولا أن رأتها لما عادت لتقرأ الكتاب أصلا؟

كيف لها أن تقول أنه هو من سماها وصالا؟ وهل هذا يعقل؟

ربما لو كانت قد فكرت في كل هذا قبل أن تقوم بالكتابة في دفترها لما كانت ستكتب أصلا، أو ربما كانت قد أحرقت كل ما تكتبه على الفور كي لا يكون شاهدا على علاقتها المحرمة أو على جنونها وتخريفها بقصص وحكايا لا تحدث عادة في عالم الواقع.

كل هذا جعلها تصمت، حتى عندما كانت تجد في داخلها القدرة والشجاعة على الكلام كانت عاصفة والدتها تمنعها من الاسترسال.

ربما قد حاولت مرتين أو ثلاثًا شرح الموقف:

- «ليس الأمر كما تظنين..»، «واللهِ هو ليس حقيقيا..»، «فقط دعيني أشرح لكِ..»..

لكن الأم لم تكن لتدعَ لها فرصة أمام غضبها المتزايد.

كانت تسألها بشكل هستيري:

- من هو؟ من هو؟ هل يسكن قريبا من هنا؟ إلى أي مدى وصلت العلاقة بينك وبينه؟ أيتها الفاجرة لقد زرتيه في بيته؟ زرتيه في بيته!.. لقد ربيتُ فاجرة.. لقد

فضحتني وفضحت عائلتك وأخواتك.

- ما الذي تقولينه! هل من المعقول أن أفعل ذلك! أقسم بالله أنه غير حقيقي، هذا مجرد كلام، أنا أتكلم عن شخص في خيالي..

- خيالي! كل هذا من أجل أن تخفي شخصيته! تقولين بأن وشاحه يحتاج غسيلا وتصرين بأنه شخص خيالي أيتها الحقيرة! ما الذي سأقوله لخطيبك؟ المسكين الذي يحبك ويهتم بك؟ هذا الذي ينتظر يوم العرس على أحرّ من الجمر.

- لم أقترف بحقه شيئا.. أنت لا تصدقينني..

لكن سيل الاتهامات كان مستمرا لا يتوقف.

كانت أمها تزداد غضبا وهي تزداد برودا بشكل تدريجي بعد خروجها من هول الصدمة.. إلى أن بدأ شعور غريب في نفسها بالظهور.

بدأت تشعر باستمتاع بما تظنه أمها بها، وكأن غضب أمها المتزايد قد أخذ يشكل لها انتقاما من كل شيء، انفصلت قليلا عن الموقف الذي هي فيه، ونأت بنفسها بعيدا، فاستطاعت مشاهدة ما يحصل من زاوية أبعد.

نعم.. هل أنتِ محرجة من ابنتك التي تفعل الفواحش؟ هل هذه هي تربيتك التي قمتِ بها بفخر؟ إذن ما قامت به ابنتكِ كان بسببكِ.. فلتذوقي إذن اليوم عقدة الذنب بنفسكِ.

سكتت الأم التي كان واضحا أنها تعبت وتهالكت من

فرط الصدمة والغضب، فما كان من الفتاة إلا أن قالت ببرود:

- أريد أن أؤجل العرس.

صفعة أخرى نزلت على وجهها، لكنها هذه المرة كانت ثابتة لم تتحرك، عادت فنظرت بتحدّ في عيني والدتها وقالت بنفس البرود السابق:

- أريد أن أؤجل العرس.

- هل تتحدينني؟ حسنٌ جدا! سأريكِ نتيجة عملكِ، سأخبر أباكِ وأختيك وخطيبك بفعلتك السوداء وسنرى آخرة التجبر بعد أن يرى الجميع فضيحتك المقرفة.

خرجت الأم مسرعة، وبقيت هي وحدها في الغرفة.

وما هي إلا لحظات حتى انهارت في نحيب مرير بعيد كل البعد عن التحدي.

كانت في هذه اللحظات أرق من عصفور جريح لا يدرك أي معنى من معاني التجبر. ولا شيء في داخله إلا الضعف والحزن والانهيار.

-٢٤-

الدقائق الأخيرة

مازال المولد مستمرا، ومازالت تجلس خلف مرآتها تنظر إلى شعرها وزينة وجهها. كانت تكره تلك الألوان وذلك الشكل المهين لشعرها الذي تعتبره جميلا دون تلك الإضافات البهلوانية.

امتدت يدها نحو وجهها، فمسحت تلك المادة المبيضة التي تُدهَن بها وجوه الفتيات عادة كي يظهرن أكثر بياضا، كانت تحب لون بشرتها الأصلي.

مسحته بهدوء حتى اختفى أثره فظهرت بشرتها الحقيقية التي كانت بلون الحنطة.

ستتزين كما تحب هي لا كما يحب الآخرون، بشكل سويّ، كما يليق لوصال أن تتجمل.

ستتزين كما لو كانت ستزفّ لمريد.. حبيبها الخفيّ.

مسحت كل ما على وجهها وفكت شعرها سريعا وأزالت الدبابيس والمشابك الصغيرة التي غُرِزت قسرا في الشعر كي تثبته.

شاهدت نفسها الحقيقية أخيرا في المرآة.

ثم بدأت تضع الكحل بطريقة جميلة فوق عينيها، فامتد الكحل كخط أسود دقيق حدد العين بشكل كامل فظهرت كل معالم العين وظهر أيضا بياضها الواضح.

حددت بعد ذلك شفتيها بلون خمري داكن له شفافية تجعل اللون يبدو أصلا من أصول الشفتين، لا لونا

مضافا بفجاجة.

ثم بدأت تمشط شعرها حتى فكت كل العقد التي خلفتها التسريحة القديمة مع المشابك الكثيرة، فضفرت ضفيرتين صغيرتين في مقدمة الرأس وأرجعتهما إلى الخلف فصنعت منهما ما يشبه تاجا طبيعيا مكللا للرأس، وضعت فوقه بعض المشابك الصغيرة بشكل زهور بيضاء. وفردت باقي شعرها إلى الخلف فانسدل وراء ظهرها وعلى جانبي وجهها بحرية منحت وجهها هالة سحر لم تكن موجودة من قبل.

كانت تشبه فتاة آتية من السبعينيات بتسريحتها هذه.

نقر خفيف وصوت أختها الكبرى من وراء الباب:

- حبيبتي، دعيني أدخل.. جئت وحدي كي أطمئن عليكِ وأساعدكِ.

فتحت لأختها الباب فأدخلتها وأوصدته بعد دخولها على الفور.

صرخت أختها بهلع بعد أن رأت وجهها:

- يا إلهي! ما الذي فعلته بنفسك؟ لماذا؟

- فعلتُ ما يجب فعله، أنا لا أحب ما تفعله أمي بنا، هذا الشكل الذي يشبه المهرجين، أنا لست مهرجا.

- أمك سيجن جنونها.. يا الله، لم تفعلين هذا بها؟! لا نريد مشاكل يا حبيبتي، لا نريد مشاكل.. انظري شعرك، هذه التسريحة لا تليق بمولد وعرس وليلة دخلة!

- أنا أدرى بما يليق لي، ألست أنا بطلة هذه الليلة

بأكملها؟ ألست صاحبة المولد؟ لم يحصل شيء من هذا بإرادتي، فليكن شكلي إذًا بإرادتي كما أحب أنا وكما أريد.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا أعرف ما الذي سأقوله لها..

- لا تقولي لها شيئا، ستتقبل الأمر رغما عنها عندما أخرج، وستمر الأمور على خير.

- إذن متى ستخرجين؟ إنها تغلي في الخارج.. يجب أن أعود إليها بخبر يقين، الله يرضى عليكِ يا حبيبتي لا تتأخري أكثر، ماما محرَجة أمام الناس.

- حاضر، سأنتهي خلال عشر دقائق لا أكثر إن شاء الله، هذا وعد مني، ولكن أريدك أن تطمئنيها أن كل شيء على ما يرام، وأنني تقريبا جاهزة.

- عشر دقائق فقط؟

- على الأكثر.. هذا وعد.

عانقتها أختها وقبلتها قبل أن تخرج، فأسرعت وأوصدت الباب بالمزلاج بعد خروجها.

فكرت بسرعة..

أي ورطة هي فيها اليوم؟

ماذا ستفعل؟!

ربما لولا تحديها الأخير لوالدتها بتأجيل العرس لما صار العرس اليوم أصلا. فبعد خروج والدتها من غرفتها في اليوم المشؤوم وتهديدها لها بأنها ستفضح أمر

الدفتر أمام الجميع، بقيت في غرفتها تنتظر دخول الجميع عليها غاضبين مشمئزين.

كانت تشعر بأنها أسوأ فرد في الأسرة، الابنة الضالة التي يجب على عائلتها أن تصلبها أو ترجمها كي تتخلص منها ومن مشاكلها.

لكن الذي حصل فعلا هو أن الأم قد عادت إليها وحدها بعد حوالي نصف ساعة. فنظرت لها ببرود وقالت لها بلهجة لا تعرف النقاش:

- جهزي نفسك، عرسك سيكون بعد ثمانية أيام.

أفقدتها المفاجأة المُرّة صوابها فقفزت من فوق فراشها وصرخت:

- أنا أطلب منك تأجيل العرس وأنت تقدمينه؟ ثمانية أيام! ثمانية أيام من الآن؟ كيف؟

- ستفعلين هذا من أجل أن نستر تلك الفضيحة، ليس من الضروري أن يعرف أحد بأمر شيء، سيكون العرس في هذا الموعد، سنقوم بمولد قبل المغرب هنا في المنزل، ثم سيأتي خطيبك بعد العِشاء فيقوم بتقديم شبكته لكِ، ثم ستذهبين معه وتصبحين زوجته.

- لكنه لم ينتهِ من إعداد المنزل بعد.. أين سنسكن الآن؟

- في بيت أهله، ثم ستذهبان إلى منزلكما حالما ينتهي من إعداده، لن يأخذ هذا وقتا طويلا.

- لكنني لا أطيقه ولا أطيق أهله، كيف لي أن أعيش

معهم في بيت واحد؟

- اسألي نفسك هذا قبل أن تقومي بأخطائك المقرفة. على كل حال، ستكون ليلة الدخلة في بيتنا الصيفي في الساحل، سيأخذك ويذهب إلى هناك، ستقضيان عدة أيام ثم ستسافران إلى أي مكان لقضاء شهر العسل مع أنك لا تستحقين إلا شهر القرف لا العسل نتيجة أفعالك الشائنة، ولكن هو من يستحق كل خير، وأيضا من أجل مظهرنا أمام الناس، سيكون كل شيء طبيعيا، ستعودان من السفر، وستقيمان في بيت أهله حتى يحين أوان الانتقال.. هذه هي الخطة ولن تفعلي إلا ما أقوله بالحرف.

- ولكن، أنا لا أتقبله، أحتاج وقتا، فقط أعطني بعض الوقت كي أستطيع تقبل وجوده، لقد كنت سأخبرك عن هذا من قبل الدفتر، الدفتر ليس كما تتخيلينه، الدفتر مجرد أفكار غير حقيقية.. أعطني فرصة فقط وأعدك بأنني سأتقرب منه بشكل صحيح ثم سنقوم بالعرس.

- أمنحك فرصة كي تفضحينا؟ احمدي الله أني لم أخبر أباكِ بالأمر، سأخبره بأننا سنعجل العرس من أجل مصلحتك، لن يجادلني أحد في ذلك، وستتزوجين بعد ثمانية أيام ممن هو أشرف وأنظف منك بكثير.

لم تتح لها فرصة للنقاش، قالت ما عندها بشكل نهائي وخرجت. كانت قادرة على فرض ما تريد ببساطة.

في نفس اليوم، أخبرت العريس الذي كان قرارها بالنسبة إليه مفرحا أكثر من أي شيء آخر، فهو على أحر

من الجمر أن يغلق عليه مع عروسه باب واحد، ويجمعها فراش واحد دون الحاجة لانتظار استكمال تشطيبات الشقة التي اشتراها حديثا وبدأ بإعدادها وفقا لما ترى والدتها بما يناسب وضع العائلة الاجتماعي. كان هذا الأمر يشكل عبئا ثقيلا بالنسبة إليه.

لكن حماته بجلالتها كلّمته وتوصلت معه بحنكتها ودرايتها إلى أن تعجل العرس فتجعله بعد ثمانية أيام فقط دون حتى أن يشعر هو أن هذه ليست فكرته وأنه بهذا يقوم بما تريده هي، لقد كانت بارعة في ذلك.

أما ابنتاها فكانتا منصاعتين لرأي أمهما وحكمتها بحل مشاكل أختهما، التي تحفظان تمردها وعصيانها المستمرين، وكانت كل واحدة منهما لديها أصلا ما يكفيها من المشاكل والمُلَهيّات في حياتها كي تناقش والدتها في أمر كهذا.

الاعتراض الوحيد الذي واجهته كان من زوجها الذي لم يعجبه الأمر ولم يقتنع به. وقد تناقشا طويلا في ذلك النهار حتى قالت له أنها تخشى على ابنتها من الانحراف بعدما رأت بوادر معينة من الممكن أن تحمل خطرا على سلوك الفتاة في المستقبل، وخير ما يمكن أن يقطع تلك البوادر هو الزواج الفوري والستر السريع مع رجلها الذي تحبه، وستنتمي له بمجرد دخولهما الحياة الزوجية معا.

كان الأب يعي بطريقة ما أن ابنته لم تكن على وفاق تام مع عريسها، لكنه لم يتوقع أن تكون هناك «بوادر»

لأي خطأ من الممكن أن ترتكبه فتاته الصغيرة الأغلى على قلبه من بين الجميع.

فكر في الأمر..

رغم ما لديه من تحفظات على طريقة زوجته في التربية فقد كان مقتنعا بأنها تفعل ما بوسعها كي تقود عملية التربية بحكمة ودقة، وقد نجحت مع ابنتيه الأخريين، حسب رأيه، فلم لا تكون على حق مع ابنتها الصغرى، خاصة وأنه يعلم أن للفتيات أمورا مربكة وأسرارا لا تعلمها إلا الأم.

ربما لو كان له ابن ذكر لتولى هو أمر نصحه بشكل أكبر ولدخل بشكل أوسع في خطط حياته ودروبها، لكن الفتاة تحتاج حكمة والدتها أكثر من حكمته.

كل هذا جعله يصمت أخيرا بعد أن أقنعته بضرورة قرارها هذا، وأخبرته بأنه ليس عليه أن يقلق على شيء فهي تعرف كيف ستقوم بكل شيء كعادتها فيما يخص الفتيات.

وهكذا تم تنفيذ قرارها حرفيا. وكأن كل من حولها حجارة يتم نقلها ببراعة فوق رقعة شطرنج.

***

تدرك صاحبة المولد بأن الوقت هو عدوها الآن، وبأنها بعد قليل قد تكون أمام السيدات المتفرجات، وبعدها بين يدي الصنم الذي باتت لا تطيق الاقتراب منه، فكيف إن كانت ستصبح أنيسته في فراشه وزوجته في بيت أهله.

أكملت تجملها، ثم أخرجت من حقيبتها مشبكا كبيرا للشعر، موصولا بقطعة جميلة من قماش بنفسجي قامت سابقا بزرع الخيط الأبيض، الذي -أخذته من شال مريد-، في تلك القطعة كي تكون مرافقتها دائما في حياتها فوق رأسها.

زرعت المشبك في شعرها بعد أن لمته.

ثم فتحت خزانتها وانتقت ملابس أخرى غير الثوب الأبيض الفاخر الذي اشترته لها والدتها من أجل المولد.. حضّرت كل شيء وارتدت ملابسها بسرعة، ثم نظرت في المرآة للمرة الأخيرة قبل أن تخرج وقالت:

- يا الله.. ساعدني..

-٢٥-

الانهيار

نهضت من فوق مقعدها المزروع بين عدد من المدعوات من كبار السن، وذوات الشأن، واتجهت نحو ابنتها الوسطى وقالت:

- الآن، يجب أن تخرج فورا.

- أعتقد أنها جاهزة الآن، لقد ذهبت أختي إليها قبل قليل ووعدتها بأنها ستخرج بعد عشر دقائق.

- إذن اذهبي أنتِ إليها هذه المرة ولا تعودي إلا بها.. هل فهمتِ ما أقول؟ لا تعودي إلا بها.

لم تجد بدا من تلبية والدتها على الفور. فانسحبت من ازدحام المولد بهدوء، ثم ذهبت إلى غرفة أختها ونقرت نقرا خفيفا.

لكن أحدا لم يرد هذه المرة.

نادت من خلف الباب:

- حبيبتي، لقد حان الوقت، هيا بنا.

ولكن لا يوجد أي رد.

كررت النقر:

- أرجوكِ يجب أن تخرجي الآن، لا تعقدي الموضوع.

- .....

- حبيبتي.. الله يرضى عليكِ.. أمي بانتظارنا مع المدعوات، لا يمكننا التأخر أكثر.

تتصاعد وتيرة النقر فوق الباب، ولكن كان واضحا أن صاحبة المولد لن ترد.

احتارت الأخت خلف الباب، لم تكن تعرف ما الذي ينبغي فعله، فاستعصاء الفتاة في غرفتها سيكون فضيحة كبرى، وستصبح عائلتها حكاية تتندّر بها العائلات.

حاولت أن ترفع وتيرة النقر حتى صار أشبه بخبطات ثقيلة، لكن دون جدوى فأمسكت مقبض الباب بشكل آليّ وجربت فتحه، ولدهشتها لم يكن الباب مقفلا.

دفعته ودخلت بسرعة لتجد الغرفة فارغة لا أحد فيها إلا ثوب عرس خالٍ من عروسه.

لم تصدق عينيها.. هل من المعقول أن تكون أختها قد خرجت دون أن تراها!

خرجت من الغرفة، بحثت في أنحاء البيت سريعا لكنها لم تجدها، فأصابها الهلع، ولم تجد بدا من استدعاء والدتها أخيرا لإطلاعها على مصيبة الاختفاء.

- لم تخرج أليس كذلك، سأجرها جرا الآن..

قالت ابنتها همسا:

- أمي.. إنها ليست في غرفتها..

- أين هي إذا؟!

- لا أعرف، لقد بحثت عنها.. إنها ليست في الداخل.

اندفعت الأم نحو الغرفة، فاقتحمتها..

فتحت الخزانة، نزلت تحت الفراش، بحثت خلف

الستائر، لكنها لم تجد شيئا.

أمسكت ثوب العرس بذهول بين يديها.. ثم تركته وأسرعت نحو بقية غرف البيت وفتشتها واحدة تلو الأخرى.

لم تترك حماما ولا علية ولا شرفة إلا وبحثت فيها.. لكنها لم تجد ابنتها.

جن جنونها.

أخذ الموقف يتصعّد في خيالها، صار كل شيء أمامها يعدُها بالانهيار، وبدأ صوت الدفوف يشكل ضغطا مهددا في أذنيها، لا صوتا يفرحها ويزيد من نفوذها كعادته.

جلست على فراش ابنتها، كانت يداها ترتجفان من فرط خوفها مما سيأتي.

- الناس.. الناس في الخارج.. ماذا أقول؟ ماذا أفعل؟

شعرت بالخوف والضعف والاضطراب والصغر، كان مزيجا مرهقا من مشاعر لم تألفها طيلة حياتها من قبل.

بحثت في قاموسها عن طريقة لحلّ تلك المعضلة، لكن طرقها اضمحلت، وقوتها تبددت، وسيطرتها على كل شيء باتت صفرا.

انتابها ضيق ثقيل، وكأن المنزل باتساعه يحاصرها بجدرانه ويخنقها..

لقد هُزِمت اليوم.. وليت الأمر يتوقف عند هزيمتها، فابنتها مفقودة لا تعرف لها مصيرا، والدنيا كلها شاهدة في الخارج على مصيبتها.

نهضت بتثاقل..

كان لابد لها من اللجوء إلى زوجها.

***

-٢٦-

المولد

كان جالسا خلف مكتبه عندما دخلت عليه بانكسار وقالت بصوت ضعيف مرتجف:

- ابنتك.. غير موجودة.

نظر إليها بهدوء وقال:

- أي واحدة منهن؟

- العروس.

- غير موجودة! لم أفهم؟!

- لقد اختفت.. اختفت من غرفتها.. ربما.. هربت..

قالت كلمتها الأخيرة وشعرت بأن نَفَسها تخرج من صدرها، فانفجرت بالبكاء.

- أخبريني كيف؟ هل كانت في غرفتها؟ ما الذي حصل؟ متى رأيتها آخر مرة؟

أخبرته وهي تبكي أنها كانت مستعصية في غرفتها، فأرسلت لها أختيها عدة مرات، حتى كانت المرة الأخيرة التي اختفت فيها ولم تستطع إيجادها.

نهض الأب مذعورا، واندفع نحو غرفة ابنته ثم غرف المنزل فبحث وفتش ولكن دون جدوى، فعاد نحو الأم التي كانت شبه منهارة وصرخ:

- لقد حذرتكِ سابقا، وأخبرتك أنها مختلفة، وأنكِ يجب أن تتفهمي مشاعرها، حذرتك بأنها تخفي نفورا من خطيبها، لكنك كعادتكِ أخرجتني من الموضوع. ما الذي

يدعو فتاة للهرب في ليلة دخلتها؟ إلا إن كانت تكره العريس كرهها للموت ذاته، أو...!!

وسكت الأب، بعد أن فوجئ بإمكانية وجود احتمال آخر أسوأ بكثير من مجرد كرهها لعريسها، احتمال كريه من الممكن أن يمنعها من إتمامها هذا العرس، أو أي عرس آخر.

هل من المعقول؟! تلك الفتاة البريئة أن تكون قد ارتكبت ذنبا يمنعها من الاستمرار؟ وهي تخشى على نفسها الآن من كشف الذنب فهربت؟!

نظر نحو الأم بعينين يتصاعد منهما الغضب، وقال بغيظ مكتوم:

- أخبريني.. تكلمي.. تكلمي..

- نعم.. هي لا تحب عريسها، وتحب شخصا آخر.

صرخ بحنق:

- شخص آخر؟! منذ متى؟ ولم لم تخبريني؟! لماذا أنا آخر من يعلم؟! من هو؟ من هو؟

- لم ترضَ أن تخبرني شيئا، بل أنكرت كل شيء، كل ما أعرفه عنه أن اسمه «مريد»، لقد قرأت ما كتبَته عنه في دفترها، عن كلماته التي يكتبها، وعن زيارتها له في بيته وأشياء أخرى..

لم تستطع أن تكمل وشهقت ببكائها الذي صار أكثر عنفا..

- «مريد»! أعطني الدفتر.. أعطني الدفتر فورا.

ذهبت الأم إلى غرفتها فأخرجت الدفتر، وعادت إلى غرفة المكتب، بينما كان المولد مستمرا، والأختان تقفان في الممر بين صالونات المولد وبقية المنزل لا تعرفان ما الذي ينبغي فعله.

أعطت زوجها الدفتر، ففتحه على الفور وأخذ يقرأ فيه بسرعة، فيقلب الصفحات دون أن يستطيع فعليا فهم شيء منها. لقد كان يحاول إعمال عقله في القراءة في الوقت الذي كانت فيه كل جوارحه تغلي بخوف وغضب بعيد عن التفكير.

قرأ قليلا لكنه لم يعِ شيئا، فأغلقه وقال لزوجته:

- سأنزل لأبحث عنها، يجب أن تنهي تلك المهزلة في الخارج، اصرفي المدعوات.

- ما الذي سأقوله؟ كيف سأنهي المولد؟

- لا أعرف.. ألستِ أنتِ الخبيرة؟! ألستِ أنتِ صاحبة الفكرة والتعجيل بالأمر كله؟ تصرفي.. تصرفي..

تركها ونزل سريعا من البيت ومعه الدفتر.

أما هي فجلست وحيدة في الغرفة تحاول إيجاد حلّ لما هي فيه.

لم تكن تعرف كيف ستخرج من هذا المأزق.

دخلت ابنتها الوسطى على الفور بعد خروج والدها، فشاهدت أمها في أسوأ حال لها طيلة حياتها، لم تكن قد رأتها في موقف ضعف على الإطلاق من قبل.

ركضت نحوها وعانقتها.. فقالت الأم وهي تبكي:

- لا أعرف أين اختفت! لا أعرف إن كان قد أصابها مكروه! لا أعرف ماذا أقول للناس! كيف أصرف المدعوات؟ ستكون فضيحة لي، سأفضَح بين الناس..

- لا عليكِ، ابقي هنا يا أمي وأنا سأتصرف..

- كيف ستتصرفين؟ ما الذي ستفعلينه؟

- يا أمي أرجوكِ ابقي هنا، لا يجب أن يراكِ الناس بهذه الحال أبدا، إياكِ والخروج، أنا سأتصرف لا تخشي شيئا، فليس هذا هو المهم الآن، المهم أن نجدها وأن تكون بخير، سأجد عذرا وسأصرف الناس بهدوء، ثقي بي.

طمأنت أمها بتلك الكلمات وخرجت سريعا نحو صالونات المولد.

كانت آخر الصحون قد فرغت من محتواها، وقارعات الدفوف قد أنهكن فاضطررن أخيرا للتوقف، بعد فراغ جعبتهن من الأناشيد والأهازيج، واختفاء سيدة المولد وبناتها، وعدم ظهور العروس صاحبة المولد حتى هذه اللحظة.

بدأ جو من الترقب يظهر على وجوه الحاضرات، وأخذ التوتر يطفو في أجواء المولد. فمن الجليّ أن أمرا ما يعرقل استمرار هذا المولد بما يشبه جميع الموالد الأخرى.

لم يكن وقت قدوم العريس قد حان بعد. لا يزال الوقت مبكرا على قدومه.

جلست ناقرات الدفوف كي يأكلن حصتهن من

الحلويات التي لم يذقنها بعد، بينما سادت الهمسات والنقاشات بين مجموعات النساء الموجودة من أمهات وفتيات وسيدات وجارات، حيث بدأ التكهن وأخذت الافتراضات تكبر عن سبب التأخير، وعن انسحاب ربة الأسرة المفاجئ وعدم عودتها حتى الآن.

من آخر الممر ظهرت الأخت الوسطى وحدها، أما الكبرى فقد فضلت البقاء مع أمها دون أن ترى أحدا هي الأخرى، لم يكن باستطاعتها احتمال إحراج هائل بهذا القدر.

تقدمت الأخت وحيدة إذن، لتواجه كل هذا الكم من العيون المتسائلة الفضولية بثبات يشبه ثبات أمها وجدّها من قبلها.

كانت لحظات محرجة من الأعذار الواهية، ساد بعدها صمت ثقيل مشبع بالتوتر، غادر على إثره الجميع تباعا.. ومعهم أهل العريس الذين لم يجدوا فرصة للبقاء بعد حسم سيدة المولد الجديدة أمر ذهابهم جميعا وعدم وجود أي إمكانية لبقائهم.

غرق المنزل بعد ذلك في سكون رهيب مناقض تماما للضجيج البدائي الذي كان موجودا قبل عدة دقائق.

كان التناقض بين الحالين عبثيا مثيرا للسخرية، ربما لو شهدته صاحبة المولد لضحكت طويلا..

لقد انتهى المولد أخيرا..

لكنها لم تكن موجودة لتشهد نهايته بنفسها.

-٢٧-

اليقين

بحث الأب في كل مكان حول المنزل، في حديقة البناء الضخمة، وفي الشوارع المحيطة، بحث في المسجد القريب، وأخذ يمشط طرقات الحي ودروبه الجانبية واحدا تلو الآخر، لكنه لم يجدها.

كان يعلم أن هناك شيئا غامضا في حياة ابنته، لقد أوصلت له شعورا بأنها لا تحب خطيبها للدرجة التي تمنت فيها حياة القبور، لكنه تجاهل شعورها الواضح.

ولكن هل من الممكن أن تكون فعلا قد فعلت أمرا فاحشا؟ طفلته الصغيرة؟ صديقته في تلك الأسرة؟ القارئة الوحيدة؟

هو يعرفها جيدا، أو يظن بأنه يعرفها.. إن لها قلبا حرا مؤمنا، يحب الله ويعشق الحياة، نعم هي مختلفة عن بقية أهل بيته، ولكن.. ربما.. ربما قد وقعت في الخطأ.. من يدري؟

كم من المرهق أن نكون على يقين بمعرفتنا الحقة بإنسان طيلة سنوات حياتنا معه، وأن يرتبك يقين السنوات هذا بسبب موقف واحد فقط وخلال لحظات، فينتابنا الشك، ويهوي بنا الظنّ نحو ظلمات الخيبة، فنجد أنفسنا مرغمين أن نشكك بكل ما بنيناه في خيالنا وآمنّا به وظننّاه حقا في هذا الإنسان ومنظومته الفكرية والأخلاقية، تحت وطأة حدث واحد يقلب لنا

مفاهيم سنوات بلحظات.

أي تفاهة إذن يعيش فيها الإنسان ويؤكدها كل يوم بيقينه النهائي تجاه الأشخاص إن كان هذا اليقين مجرد فكرة غيبية مزروعة في عقله فقط ولا إثبات لها إلا إيمانه الفعلي بها.

أو ليس هذا ظلمًا حقيقيًا؟

ما بين هذا وذاك هو تائه الآن.. ما بين الحب والخوف والشك والحزن والغضب.

حبه لصغيرته الحبيبة، وخوفه عليها، وشكه بسلوكها وما يمكن أن تكون قد اقترفته، وحزنه على ما يمكن أن يصيب العائلة إن صحّ هذا، وغضبه من زوجته التي كانت بالنسبة إليه المسؤولة عن كل هذا.

لكنها تقول أيضا بأن ابنته تعرف شخصا وتحبه، ومن يكون هذا الشخص؟

عاد الأب إلى المنزل بلا أي دليل، فدخل غرفة زوجته.

كان غاضبا حانقا، طلب من ابنتيه الخروج من الغرفة على الفور، ثم انفجر في وجه زوجته بغضب لم تعهده منه..

استجوبها عن كل شيء، عن كل ما حدث خطوة بخطوة، منذ بداية خطبة الفتاة مرورا باكتشاف الدفتر، وصولا إلى لحظة تعجيل العرس.

- كيف لكِ أن تعجلي العرس، وقد عرفتِ أن في حياتها شخصًا آخر؟! كيف لكِ أن تفعلي ذلك؟!

- وهل تريدني أن أزوجها صعلوكا يضحك عليها؟

- ومن قال أننا سنزوجها أي أحد؟ ولكن كيف لكِ أن تجبريها على العيش مع من تكره؟ هذه جريمة حتى بحق خطيبها! ما ذنبه أن يعيش مع فتاة تحب غيره؟ ثم كيف لك أن تعرفي أنها لم تقم بخطأ مع هذا الذي تقولين بأنها تحبه؟ مع احتمالية كهذه.. تزجين بها في الزواج! هل أنتِ مجنونة؟!

- كنت خائفة من الفضيحة..

- وهل خوفك من الفضيحة يكون بالتخطيط لفضيحة أكبر! إن حدث شيء لهذه الفتاة فأنتِ من تتحملين المسؤولية، أمام الله وأمام الدنيا بأكملها..

- أنا أخشى عليها بقدر خشيتك أنت وربما أكثر وتتهمني اتهاما كهذا؟ أقول لك تحب شخصا آخر، قرأت في دفترها أنها زارته في بيته، وكلما ضغطت عليها كي تقول الحقيقة أصرت على الإنكار.

- فتكون النتيجة أنكِ تأخذين القرار دون أن أعلم بهذا الأمر الرهيب، وتقيمين مولدا للدخلة خلال ثمانية أيام فقط، وأنا ساذج خارج الإطار لا أعرف شيئا عن كل ما حصل، تقنعينني أن الأمر لمصلحتها وتقواها وأنا أصدق.. أي تجبر هذا وأي تحجر!

تركها وخرج من المنزل بعد أن أمر ابنته الوسطى بأن تتولى إخبار العريس ـالذي ربما قد عرف بأن هناك خطبًا ما من قبل ذويه حاضري المولدـ وإلغاء قدومه والتعلل بأي علة ريثما يحل معضلة اختفاء أختها.

كان مازال يمسك الدفتر ويطويه بيديه من شدة توتره.

لم يكن يعرف أين يذهب، فعاد إلى حديقة البناء واستقل سيارته.

أغلق الباب، وعاد برأسه إلى الوراء.

حاول تهدئة نفسه قليلا فأخذ نفسا عميقا.. ثم أرخى قبضته عن الدفتر وفتح أولى صفحاته وبدأ يقرأ رسائلها لمريد.

كان الوقت ليلا، وكانت ليلة باردة بدأت فيها الأمطار بالهطول.

***

-٢٨-

وأين مريد؟!

كانت الأشجار والنباتات مشبعة بقطرات المطر، كلما وقف عصفور فوقها تهتز الأوراق فيتساقط الكثير من القطرات الباردة على الأرض.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، لكن سيارة الأب قد تحركت من مكانها بهدوء.

كان الجو باردا ومنعشا.

شوارع المدينة خالية تماما من المارة إلا من بقايا المصلين الخارجين من المساجد. هذا ما جعله يسير بهدوء ويسر باتجاه غايته.

لم يعد إلى المنزل في تلك الليلة، بل بقي في سيارته يقرأ الصفحات. ثم صلى الفجر في الحديقة ودعا الله طويلا قبل أن ينطلق في رحلة بحثه الأخيرة قبل إشهار الأمر على مسامع الدنيا.

نعم، لم تكن ابنته على خطأ، لقد أدرك ذلك بعد قراءته كلماتها.

كانت تحب، بروحها، خلقت في نفسها ذلك الفلك الجميل الخيالي، وعوضت نفسها عن كل نقص زرعه هو ووالدتها وخطيبها في عالمها.

لقد أدرك من هو مريد، وأنّى له هو ألا يعرف الهوية الحقيقية لمريد..

أدرك أن رسائل الدفتر كانت سهام استغاثة ترسلها

الفتاة نحو الغيب كي تنقذها مما هي فيه.

وأدرك أن زيارتها لبيته ما هي إلا رحلتها معه إلى القبر والمكتبة.

والآن، لم يبقَ لديه إلا أمل واحد لإيجاد ابنته قبل أن يظهر أمر اختفائها فتبدأ الألسن بحياكة مصير الفتاة في مجتمع يعرف تماما كيف يقضي على مستقبل الأشخاص بخيال القصص وغباء الظنون.

وصل الحي القديم، فركن السيارة ومشى سريعا نحو حديقة القبر في حي البستان.

عند باب الحديقة المفتوح وقف يلتقط أنفاسه، ويدعو الله أن يحل أزمته..

دخل بهدوء، نظر حوله في المكان..

لكنه لم يجد أحدا.

شعر بيأس يحرق معدته وأنفاسه، كان المكان واضحا أمامه، فارغا إلا من بحيرات المطر الصغيرة على الأرض، القبر الأبيض والنباتات التي مازالت تقطر ماء.

اضطربت أنفاسه، كان على وشك البكاء.

لكنه لملم ضيق صدره والتفت ليخرج من الحديقة الفارغة.

كانت الشمس قد بدأت بالظهور من بين بقايا السحب السميكة. وبدأت أشعة خجولة منها تظهر من بين أغصان شجرة البرتقال وأوراق دالية العنب.

قبل أن يخرج.. عاد فنظر نحو القبر نظرة أخيرة..

أدرك من خلالها وجود فراغ صغير وراء شاهد القبر الصغير.

لم يكن يحتاج خيبة أمل أخرى، لكنه أيضا لم يستطع الخروج قبل أن يبحث في تلك الفجوة.

عاد فدخل بهدوء واتجه نحو الفجوة ونظر فيها من فوق القبر..

نعم.. لقد كانت هناك.

مستلقية.. تلمّ نفسها بيديها..

خائفة مبتلة ترتجف كقطة صغيرة من البرد والخوف.

شعرت بوجود أحد ما لكنها لم تكن تجرؤ على النظر.

أما هو فقد أعياه منظرها..

كان في قمة الحزن وقمة الفرح في آن معا.. فخرجت دمعته لتعبر عن هذا الاضطراب الشديد..

لم يكن يريد أن يخيفها.. فهمس لها بصوت حاول قدر الإمكان أن يكون دافئا:

- وصال..

رفعت رأسها بخوف.. فرأت والدها يبتسم لها من خلال دموعه.. لقد ناداها باسمها الذي اختارته.. نعم إنه أبوها يبتسم لها..

بدأت بالبكاء..

- لا أريد أن أتزوجه.. والله لم أفعل شيئا.. الدفتر مع ماما.. أنا أكتب خيالًا.. بابا والله لم أفعل شيئا..

تتكلم وتبكي كطفل صغير.

اقترب منها حتى وصلت يده إليها فوضع يده على كتفها، ثم شدها بهدوء وضمها إلى صدره..

- أعرف.. أعرف من هو مريد.. اطمئني.. اطمئني.. لن يكون هناك عرس ولا مولد.

***

كانت الزهور المعرشة في الحديقة قد بدأت بالتفتح الأخير لها قبل قدوم الشتاء، أما شجرة البرتقال فكانت في أوج إثمارها فوق قبر مريد الذي لم يكن فعليا مدفونا هنا حتى، بل كان هذا مجرد ضريح رمزي له..

لكن أحدا من أهل المدينة لا يعرف هذا..

فهم يؤمنون فقط بما تعودوا على سماعه.

***